8

سلسلة

مَوَازِينُ الْقُرْآنِ

تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ



مركز الدراسات والبحوث
جامعة ابن كثير الدولية

بيانات النشر والحقوق

إصدار: مركز الدراسات والبحوث - جامعة ابن كثير الدولية

السلسلة: موازين القرآن.

اسم الكتاب: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ﴾

رقم الكتاب في السلسلة: الثامن.

الطبعة الأولى: 1448هـ / 2026م

© جميع الحقوق محفوظة لمركز الدراسات والبحوث - جامعة ابن كثير الدولية.

هذا الكتاب متاح بموجب ترخيص المشاع الإبداعي نسب المصنف - غير تجاري - منع الاشتقاق 4.0 دولي (CC BY-NC-ND 4.0).

يُسمح بتحميل الكتاب ونسخه وتوزيعه وإعادة نشره وطباعته للأغراض غير التجارية دون إذن مسبق، بشرط المحافظة على نسبته إلى أصحابه، وعدم نشر نسخ معدلة أو مترجمة منه.

ويرحب المركز بطلبات طباعة هذا الكتاب ونشره لأغراض تجارية، شريطة الحصول على إذن كتابي مسبق من المركز، مع المحافظة على النص كاملًا دون تعديل أو حذف أو إضافة، ونسبته إلى أصحابه، ما لم يُتفق كتابةً على خلاف ذلك.

رابط الترخيص https://creativecommons.org/licenses/by-nc-nd/4.0/deed.ar

النسخة الرسمية المعتمدة للكتاب:

https://www.ibnkathir-edu.org/ar/research-center/books/tlk-aldar-alakhr

إعداد السلسلة

مركز الدراسات والبحوث — جامعة ابن كثير الدولية

الإشراف العلمي على المركز

أ.د. عبدالله بن مبارك آل سيف

الفريق العلمي للمركز

د. عبدالله سالم باهمام

د. صهيب لموح

د. شادية عبدالله بابكر

إسلام موسى

عادل بافرج

المراجعة والتحكيم العلمي

يراجع المركز إصداراته بمحكمين خارجيين عند الحاجة.

كما شارك في إنتاج السلسلة وإخراجها عدد من فرق المركز الإدارية والفنية.

سلسلة موازين القرآن

عناوين الكتب في السلسلة

- **هو الله** | كيف يبني القرآن معرفة العبد بربه؟
- **إلا ليعبدون** | كيف يوحد القرآن وجهة الإنسان؟
- **زادهم هدى** | مسار القلب بين الهداية والزيغ والعودة
- **إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوًّا**
- **ولنبلونكم** | رحلة القرآن في كشف القلوب وبنائها
- **اعلموا أنما الحياة الدنيا** | كيف تنتفع بها من غير أن تستعبدك
- **وتحبون المال حبًّا جمًّا**
- **تلك الدار الآخرة** | الميزان الذي يعيد وزن كل شيء — هذا الكتاب
- **قد أفلح المؤمنون**
- **وقولوا للناس حسنة**
- **كونوا قوامين بالقسط**
- **الذين نافقوا** | من فساد الباطن إلى إفساد الواقع
- **وتلك الأيام نداولها** | كيف يعلّمنا القرآن أن نقرأ حركة الأيام؟
- **إن وعد الله حق**
- **إن هذا القرآن**

مركز الدراسات والبحوث

يصدر هذا الكتاب ضمن مشروعات مركز الدراسات والبحوث في جامعة ابن كثير الدولية، في إطار عنايته بالبحث والتأليف الشرعي، وبالمشروعات التي تصل هداية الوحي بأسئلة الإنسان الكبرى، وتقرّب أثر العلم من القلب والتصور والسلوك. وينطلق المركز في هذا المسار من أن النصوص الشرعية لا تُطلب لمجرد زيادة المعرفة، بل لتبني رؤيةً صحيحة، وتصحح الموازين، وتهدي الإنسان في علاقته بربه ونفسه والحياة من حوله.

ومن هنا تأتي العناية بالاستقراء، ودقة الفهم، وحسن البناء، وربط المعنى بالواقع من غير أن يتحول الوحي إلى شاهد تابع لفكرة سابقة، ولا أن يطغى التحليل البشري على دلالة النص وسلطانه.

سلسلة موازين القرآن

من هذه العناية جاءت سلسلة «موازين القرآن»: مشروع تأليفي يتتبع موضوعات كبرى كما يبنيها القرآن، ويستنير بالسنة في بيانها وتجسيدها وإتمام مشهدها، ثم يحاول أن يحول ما تكشفه النصوص إلى موازين يرى بها القارئ ربه ونفسه والحياة والناس والنجاح والخسارة، لا إلى معلومات متجاورة فحسب.

ولهذا لا تبدأ السلسلة بفكرة مكتملة ثم تستدعي الآيات والأحاديث لتزيينها، بل تحاول أن تبدأ من الوحي نفسه: تستقرئ نصوصه، وتراعي سياقاتها، وتجمع مشاهدها ومعانيها، ثم تسأل: ما الميزان الذي يبنيه الوحي في القلب؟ وكيف تتغير رؤية الإنسان وعبادته وقراراته إذا صار هذا الميزان حاضرًا فيه؟ فالقرآن هو الأصل الحاكم في بناء الرؤية، والسنة وحي مبين تأتي شارحة ومجسدة ومؤسسة للمعنى بحسب موضعها، ويظل التحليل والتأمل وربط النص بالنفس والواقع خادمًا لهذا الأصل، لا متقدمًا عليه.

والميزان في هذه السلسلة ليس شعارًا ذهنيًا، بل طريقة في النظر والعيش. قد يعرف الإنسان أن الآخرة خير وأبقى ثم يزن أكثر قراراته بالعاجل، ويعلم أن الرزق بيد الله ثم يعيش كأن الأسباب تملك مستقبله. لذلك تحاول كتب السلسلة أن تنقل القارئ من معرفة النص إلى رؤية الأشياء به، ومن فهم المعنى إلى معايشته، حتى يغلق الكتاب وفي قلبه ميزان يعود إليه بعد القراءة في خوفه ورجائه، وفي نعمته وبلائه، وفي اختياراته وعلاقاته وطريقه إلى الله.

هذا الكتاب

يتناول هذا الكتاب الدار الآخرة بوصفها الميزان الذي يعيد وزن كل شيء، لا بوصفها أخبارًا عن مستقبل غائب فحسب. فالإيمان بالبعث والحساب والجزاء ليس معلومةً تُحفظ ثم تُترك جانبًا عند العمل؛ إنه يقين يرافق النية والكلمة والحق والعهد، ويكشف للعبد أن ما يراه من ربح وخسارة ليس الحكم الأخير. ومن هنا ينشأ سؤال الكتاب: ماذا يتغير في نظرة الإنسان وقراراته حين تصير الآخرة حاضرةً في قلبه، وإن غابت عن بصره؟

يسير الكتاب مع نصوص الوحي من اليقين بالآخرة وأدلته إلى حكمة الخلق والرجوع، ثم إلى الموت والبرزخ وانقلاب العالم والبعث والحشر. ويقف عند انكشاف السرائر وقراءة الكتب وشهادة الجوارح، ثم عند الحساب والميزان والحقوق والشفاعة والرحمة. وفي هذه المشاهد لا يُراد مجرد ترتيب الحوادث أو إثارة الخيال، بل أن يعرف القارئ ما تفعله هذه الحقائق في ضميره: كيف يستقيم ميزان العدل، وكيف تُرد المظالم، وكيف يصبح للعمل الخفي والقول العابر وزنٌ لا يضيع؟

ويتتبع الكتاب أثر هذا الميزان في الخوف والرجاء والتوبة، ثم يعرض مصير الفريقين وما أخبر به الوحي عن الجنة والنار، قبل أن يرتفع بالقلب إلى رضوان الله ولقائه ورؤيته. وبعد ذلك يعود إلى اليوم الحاضر: إلى الكلمة التي تُقال، والحق الذي يُؤدى، والرحمة التي تُبذل، والعمل الذي يُقدَّم للغد. فالغاية ألا تبقى الآخرة بعيدةً في تصوّر القارئ، بل تكون ميزانًا يقرأ به حياته؛ يعمل في الدنيا ولا يحبس حكمه في عاجلها، ويرجو فضل ربه وهو يستعد للقائه.

محتويات الكتاب

بيانات النشر والحقوق..... 1
المحور الأول: وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ..... 9
المحور الثاني: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا﴾..... 24
المحور الثالث: وَنُفِخَ فِي الصُّورِ..... 33
المحور الرابع: يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ..... 42
المحور الخامس: وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ..... 50
المحور السادس: وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا..... 58
المحور السابع: فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ..... 66
المحور الثامن: وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ..... 73
المحور التاسع: وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ..... 79
خاتمة..... 84
الملحق الأول: مسائل الغيب المحررة..... 85
الملحق الثاني: خريطة رحلة الكتاب..... 90

مقدمة

قال الله تعالى: ﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ﴾ [الأنبياء: 1]. في الآية مسافتان متجاورتان: حساب يقترب، وقلب يبتعد. ولا تحتاج الغفلة دائمًا إلى إنكار صريح؛ قد يسكن التصديق في موضع من النفس، ثم تمضي الموازين اليومية كأن ما تراه العين هو المحكمة الأخيرة، وكأن اللذة القريبة هي الربح كله، والألم العاجل هو الخسارة كلها، وما خفي عن الناس لن يعود، وما تأخر جزاؤه قد ضاع.

موضع هذا الكتاب هو المسافة بين تصديق خبر الآخرة واحتكام القلب إليه. قد يجيب الإنسان جوابًا صحيحًا عن البعث والحساب، ثم تبقى اختياراته اليومية محكومةً بما قرب من لذة أو ألم أو مدح. وأنزل الله ذكر اليوم الآخر ليصحح هذا الحكم: الخلق لم يقع عبثًا، والعمل محفوظ، والسر مكشوف، والحق لا يضيع، والنجاح لا يثبت لمجرد أن الناس صفّقوا له، والألم لا يملك الكلمة الأخيرة، وما أفلت من حكم الناس لم يفلت من حكم الله.

وهذا الكتاب أحد كتب سلسلة «موازين القرآن»، يقابل كتاب «الحياة الدنيا» من غير أن يكرره: ذاك يقرأ دار الامتحان كما يزنها الوحي، وهذا يقرأ دار الجزاء التي تكشف حقيقة الامتحان وتعيد وزن أيامه.

يرد ذكر الآخرة في القرآن داخل الصلاة والإنفاق، والمال والعهد والكلمة، وقصص الظالم والمظلوم، وتثبيت الرسل، وفتح باب التوبة. ويواجه استبعاد البعث بخلق الإنسان أول مرة وبالأرض التي تحيا بعد موتها، ثم ينقل القلب من إمكان الإعادة إلى حكمتها وعدلها. فالذي خلق لم يخلق سدى، والذي أمر ونهى لا يسوي بين المصلح والمفسد، والذي أحاط بالسر والعلن لا تضيع عنده نية ولا حق.

وتأتي السنة وحيًا يفتح من معاني الآخرة ما لا يقوم هذا البناء بدونه. تكشف ما ثبت من البرزخ والحشر والحساب والحقوق والشفاعة والحوض والصراط والرؤية، وتوصل الغيب بأقرب تفاصيل اليوم. وحين يقول النبي صلى الله عليه وسلم: «مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيَقُلْ خَيْرًا أَوْ لِيَصْمُتْ» (صحيح البخاري، 6018؛ صحيح مسلم، 47)، فإن اليوم الآخر يدخل في الكلمة قبل خروجها من الفم. لا تأتي السنة هنا لتزيّن معنى اكتمل من غيرها؛ هي التي تنشئ الصلة بين العقيدة واللسان، كما تنشئها في الجوار والضيافة والرحمة بالمعسر وحقوق الخلق وأعمال الخلوة.

لا يتتبع الكتاب أسماء القيامة استقصاءً، ولا يرسم جدولًا لكل ما بعد الموت. يمر بالموت والبرزخ والحشر والكتاب والميزان والجنة والنار بقدر ما يكشف بها الوحي حكمًا فاسدًا أو ينشئ عبودية حاضرة. وما ثبت أُثبت، وما سكت عنه تُرك، وما لم يصح ترتيبه أو كيفيته لم يكمله الخيال؛ ففي الخبر الصحيح من الجلال والأثر ما يغني عن الضعيف والمصنوع.

تبدأ الرحلة من أصل التلقي واليقين، ثم ترد استبعاد البعث إلى الخلق الأول وإحياء الأرض، وتكشف أن الرجوع من تمام حكمة الخلق. وبعد الموت والبرزخ ينقلب العالم، ويُحشر الخلق، وتظهر السرائر والكتب والشهود، ثم يأتي الحساب والميزان وحقوق العباد والشفاعة والرحمة.

ثم تتكشف الأسماء النهائية للفوز والخسران، والطريق إلى النار والطريق إلى الجنة، ويرتفع الوعد إلى لقاء الله ورضوانه والنظر إلى وجهه الكريم. ومن هذه الذروة يعود القارئ إلى يومه؛ ليرى ما تصنعه الآخرة في الكلمة والحق والرحمة والعمل الذي يقدمه لغده.

ولا يُطلب من قارئ هذا الكتاب توتر دائم ولا فحص مرضي لكل حركة. اليقين الصحيح يجمع الجد والسكينة: يحمل على العمل والتوبة والعدل والصبر، ويمنع العجب والقنوط والتفريط، ويُبقي الشوق متصلًا بواجب الساعة.

وقد يبقى من هذه الصفحات في نفس قارئ آية واحدة أكثر مما يبقى من فصول كثيرة. هذا كافٍ إذا استعادت الآية سلطانها في موضع القرار. القراءة المقصودة هنا لا تقف عند سؤال: ماذا عرفت عن الآخرة؟ يتبعها سؤال أشد قربًا: ماذا أعادت الآخرة وزنه في قلبي؟ هل صار رضا الله أثقل من رضا الناس؟ هل بقيت المظلمة صغيرة بعد أن عرفت أين تعود؟ هل صار الصبر أوسع حين علمت أن الألم مرحلة لا حكم نهائي؟ وهل دخل لقاء الله في قرار لا يراه أحد؟

وفي الآية التي منحت الكتاب اسمه يقول الله تعالى: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [القصص: 83]. ليست الإشارة إلى دار بعيدة عن الحياة، وإنما إلى الدار التي تكشف حقيقة ما نريده هنا: علوًّا أم عبودية، فسادًا أم تقوى. ومن أجلها لا نترك الدنيا، وإنما ندخلها بميزان آخر، نقرأ الحاضر من نهايته الحقّة، حتى لا نصل إلى تلك الدار وقد ظل ميزاننا في هذه الدار كما كان.

المحور الأول :وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ

قد يصدق الإنسان بالبعث والحساب والجنة والنار، ثم تمضي اختياراته اليومية كأن الطريق ينتهي عند ما تراه العين. لا ينكر الخبر، لكن أثره لا يبلغ دائمًا موضع القرار؛ فيؤخر توبةً، أو يستسلم لشهوة، أو يزن نجاحه وخسارته بميزان اللحظة.

الفارق هنا بين خبر صحيح في الذهن ويقين يملك التقدير والعمل. يعرف المريض أن دواءه نافع، ولا يداوم عليه؛ ويعرف المسافر أن موعد رحلته قريب، ثم لا يتهيأ حتى تفجأه الساعة. القرآن لا يريد للآخرة أن تبقى معلومةً في زاوية بعيدة؛ يريدها نورًا يرى به الإنسان ما وراء الحس، ويقرأ به اللذة والألم والربح والخسارة على ضوء الحكم الأخير.

جاء اليقين بالآخرة في مطلع صفات المتقين، قبل امتداد سورة البقرة في التشريع والقصص والعهود والإنفاق والجهاد والأسرة والمعاملة. فهو داخل في تكوين القلب الذي سيتلقى الأوامر، لا خاتمة تلحق بها بعد اكتمالها. من يعلم أن الأمر كله راجع إلى الله يقرأ التكليف وهو يرى ما وراء ثقله ولذته الحاضرين؛ ثقل عليه الطاعة وتدعوه الشهوة، لكنه لا يحبس النتيجة في اللحظة.

ويبني الوحي هذا اليقين على طريق واضح: يثبت مصدر الخبر، ويرد الإنسان إلى خلقه الأول، ويفتح عينه على الأرض التي تحيا، ثم يكشف أن الهوى قد يختبئ خلف سؤال البرهان والموعد.

وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ

﴿ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ۝ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۝ أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [البقرة: 2-5].

افتتحت السورة بالكتاب الذي لا ريب فيه، ثم وصفت من ينتفع به. فاليقين بالآخرة يُتلقى من خبر الله الذي أنزل الكتاب هدى، لا من خيال يميل إلى الغيب. وقد اتصل الإيمان بالغيب والإيمان بما أنزل الله واليقين بالآخرة في وصف واحد: يتلقى المؤمن الخبر من الوحي، ثم يتدبر حججه وآياته بعقل يعمل في موضعه ويعرف حدَّه.

الغيب في الاستعمال القرآني ما غاب عن الحس وأخبر به الله سبحانه، أو أخبر به رسوله صلى الله عليه وسلم فيما صح عنه. وغيابه عن العين لا يمنع العلم به؛ فكثير من معاش الإنسان يقوم على آثار وأخبار

لم يشهدها بنفسه. فإذا كان المخبر هو الله، صار قصور الحس عن الإدراك حدًّا للحس، وبقي الخبر على كمال صدقه.

وأول أدب يتعلمه القلب في باب الآخرة أن يسأل عن ثبوت الخبر ودلالته، ثم يقف حيث وقف الوحي. لا يرد ما صح لأنه لم يألفه، ولا يكمل ما سكت عنه النص بصورة يصنعها خياله. وبين الجحود والخرافة طريق واحد يحفظه التلقي الصحيح: وحي ثابت، وفهم منضبط، وعقل يعمل في موضعه، وتواضع يعرف أن وراء الحس حقائق لا تصير باطلة لأن العين لم ترها بعد.

اليقين الذي يصنع الصلاة والإنفاق

لم تفصل الآيات اليقين عن الحياة. قالت في وصف المتقين إنهم يؤمنون بالغيب، ثم ذكرت الصلاة والإنفاق، ثم الإيمان بالوحي واليوم الآخر. فالغيب الذي استقر في القلب ظهر حركةً في الجسد والمال. وقف المصلي بين يدي رب لا يراه، وأنفق مما رزقه الله وهو يرجو ما عنده، وآمن بأن ما يخرج من يده لا يضيع حين يودعه عند من إليه المصير.

ولو كان الإيمان بالغيب فكرةً ذهنية مكتفية بنفسها، لما جاورته هذه الأعمال في أول تعريف المتقين. القرآن يبني وحدةً بين المعرفة والعبادة: لأن الله حق وإن غاب عن الأبصار عُبد، ولأن وعده حق وإن تأخر أوفي، ولأن الآخرة حق وإن لم تقع بعد عُمِل لها. وكلما ضعف هذا الاتصال، أمكن أن يبقى الاعتقاد في موضعه اللفظي، بينما تتحكم المشاهدة العاجلة في معظم الاختيارات.

خص هذا الموضع الإيمان بالآخرة بلفظ اليقين، وفسره أهل التفسير بالتصديق الجازم بالبعث والقيامة والجنة والنار والحساب والميزان. يبرز اللفظ ثباتًا يحتاجه من يعيش داخل الدنيا وتضغط عليه أسبابها، بينما الآخرة غائبة عن حسه. ما حوله يقول: هذا الموجود الآن؛ ويكشف الوحي أن ما يراه فصل من القصة، وأن الحكم الذي لم يره آت لا ريب فيه.

ويقوي إظهار الضمير في قوله: ﴿وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ ثبوت هذا الوصف فيهم؛ فلا يمر ذكر الآخرة عند جنازة ثم يغيب عند السوق والخصومة واللذة. إنها داخلة في رؤيتهم للأشياء. ثم يختم المقطع بقوله: ﴿أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾، فيعرّف الفلاح قبل أن تعرض السورة ما يملكون من الدنيا أو يفقدون.

السنة تجعل اليوم الآخر أصلًا في الإيمان

لما جاء جبريل عليه السلام يسأل النبي صلى الله عليه وسلم أمام أصحابه عن الدين، لم يذكر اليوم الآخر في باب المواعظ الزائدة، بل أدخله في تعريف الإيمان نفسه. قال النبي صلى الله عليه وسلم في جوابه عن الإيمان:

«أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ، وَمَلَائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ» (صحيح مسلم، 8).

بهذا البيان النبوي لا يكون الإيمان بالآخرة بابًا تابعًا يمكن أن يضعف من غير أن يمس صورة الدين كلها. إنه أحد الأصول التي يقوم عليها تصور المؤمن للوجود. من عرف الله خالقًا حكيمًا، وآمن بوحيه ورسله، لزمه أن يتلقى خبر الرجوع والجزاء كما تلقى خبر الخلق والأمر. ولهذا جمع الحديث أصولًا غيبية لا تستقل التجربة بإدراك تفاصيلها، وجعل موقف العبد منها الإيمان الذي يثمر الإسلام والإحسان.

والسنة هنا لا تكرر لفظ القرآن فحسب؛ إنها تكشف موقع اليوم الآخر في بناء الدين كله. فالإسلام أعمال ظاهرة، والإحسان عبادة على المراقبة، والإيمان يحمل الغيب الذي يعطي تلك الأعمال معناها ووجهتها. يصلي العبد اليوم، ويحسن في خلوته، ويصبر على قدره، لأنه لا يعيش داخل اللحظة وحدها. وراءها رب يراه، ووحي صدقه، ويوم يجمع ما تفرق من عمله.

هل يزداد اليقين؟

قد يتوهم بعض الناس أن طلب زيادة الطمأنينة نقص في أصل الإيمان، أو أن المؤمن الكامل لا يسأل كيف يزداد قلبه ثباتًا. والقرآن يعرض سؤال إبراهيم عليه السلام فيضع الفرق أمامنا بدقة:

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [البقرة: 260].

قال إبراهيم: بلى. ثبت أصل الإيمان قبل أن يذكر حاجته. ثم طلب انتقالًا في مقام الطمأنينة: أن يريه الله إحياء الموتى في الآية المشهودة التي أمره بها، فيزداد القلب سكونًا إلى ما صدقه. والسؤال هنا صادر عن إيمان يطلب مزيدًا من الثبات، لا عن خصومة تريد إسقاط الخبر. لهذا جاء الجواب تعليمًا وإراءة، وختم باسمين: العزيز الحكيم. القدرة التي تحيي ليست قوةً عمياء، والفعل الذي بهر العين جارٍ بعزة لا تعجز وحكمة لا تعبث.

في هذه القصة حماية للمؤمن من طرفين. لا يجعل كل سؤال صادق تهمةً في العقيدة، ولا يجعل طلب الطمأنينة بابًا لتعليق الإيمان حتى يرى كل غيب بعينه. إبراهيم آمن أولًا بخبر ربه، ثم سأل ما زاد قلبه طمأنينة بإذن الله. أما من يقول: لن أصدق إلا إذا خضع الغيب لشروطي وتجربتي، فقد جعل نفسه حاكمًا على مصدر الخبر، لا طالبًا للفهم منه.

ويزداد الإيمان وتزداد طمأنينة القلب، كما قال الله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَّعَ إِيمَانِهِمْ﴾ [الفتح: 4]. ويقوى اليقين بتدبر الخبر في سياقه، والنظر في دلائله، وصدق العبادة على مقتضاه، ومجاهدة الهوى الذي يعارضه. فيترك العبد حرامًا لا يراه الناس، ويرد حقًا يستطيع إخفاءه؛ لأن ما غاب عن أعينهم حاضر عند الله.

علامات اليقين في الحياة

لا يُقاس اليقين بكثرة ما يتحدث المرء عن اليوم الآخر، ولا بارتفاع الشعور عند سماع مشهد منها. قد تبكي العين ويعود الميزان كما كان، وقد يسكن القلب بلا انفعال ظاهر ثم يخرج منه قرار صادق. العلامة الأوثق أن تدخل الآخرة في تقدير الأشياء.

إذا تعارض نفع قريب مع حق ثابت، فهل تكون النتيجة العاجلة هي الكلمة الأخيرة؟ وإذا خلا الإنسان بما يقدر على ستره، فهل يبقى لعلم الله والحساب أثر؟ وإذا تأخر جزاء المعروف، هل يظن أن العمل ضاع؟ وإذا نجا ظالم في محكمة الدنيا، هل يختل عنده أصل العدل؟ وإذا انكسرت له صورة نجاح كان يطلبها، هل يملك أن يفرق بين خسارة مرحلة وخسارة المصير؟

هذه الأسئلة ترد العاجل إلى حجمه من غير أن تحول الحياة إلى مراقبة مرضية. اليقين يحرر من عبودية اللحظة مع إبقاء الانتفاع بها، ويوقظ الخوف من غير أن يقطع الرجاء، ويحمل الفعل مسؤوليته من غير أن يجعل العمل ثمنًا يستغني به العبد عن رحمة ربه. نقطة البدء هنا واضحة: الآخرة خبر من الله، ومن صدقه لم يجعل غيابها عن الحس غيابًا عن القرار.

لكن الوحي لا يكتفي بأن يقول للإنسان: صدق. إنه يرد عينه إلى نفسه، ويسأله عن البداية التي يحملها في جسده. من استبعد الإعادة نُقل إلى خلقه الأول، ومن نسي قدرة الخالق ذُكّر بالمرة التي لم يكن فيها شيئًا مذكورًا.

﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ﴾

قد يمسك المنكر عظمًا قد بلي، ويجعله نهاية الدليل: هذا تفتت، فمن يعيده؟ ينظر إلى المرحلة الأخيرة من الجسد، ويغفل عن السؤال الأسبق: من أنشأ هذا الجسد أول مرة؟ ومن جمع ماءً مهينًا في أطوار حتى صار عينًا تبصر، ولسانًا يخاصم، وعقلًا يسأل عن إمكان البعث؟

القرآن لا يهرب من صورة العظام الرميم، ولا يخفف من تمام موتها. يضعها في الحجة، ثم يعيد ترتيب النظر كله:

﴿أَوَلَمْ يَرَ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ۝ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ۝ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ۝ الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ۝ أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ ۝ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ۝ فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [يس: 77-83].

نسي خلقه

تبدأ الحجة بالإنسان قبل العظم. هذا الخصم لم يكن قائمًا بنفسه ثم طرأ عليه الموت، كان نطفةً لا تملك لنفسها صورةً ولا عضوًا ولا وعيًا، فأنشأه الله حتى صار خصيمًا مبينًا. والمفارقة مؤلمة: القدرة التي مُنحها على البيان صارت أداةً يخاصم بها في خالقه، والعقل الذي كان ينبغي أن يقرأ بدايته استعمله في صناعة مثال نسي فيه نفسه.

قوله: ﴿وَنَسِيَ خَلْقَهُ﴾ يكشف موضع الخلل. لم تكن العظام الرميم هي الحقيقة الوحيدة أمامه، كانت نشأته الأولى حقيقةً قائمة فيه، لكنه أسقطها من الحساب. ومن أساليب النفس أن تختار من المشهد ما يخدم النتيجة التي تريدها. ترى التراب ولا ترى الخلق من النطفة، وتحضر ضعف المخلوق ولا تحضر قدرة الخالق، ثم تسمي الصورة الناقصة برهانًا.

والجواب القرآني موجز لا يحتاج إلى تكلف: ﴿قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾. لا ينتقل إلى فاعل مجهول، ولا يتحدث عن قوانين تعمل وحدها؛ يعيد العظام إلى الذي أنشأها. إذا ثبت الخالق الأول سقط استبعاد الإعادة، لأن العدم لم يكن عقبةً أمام الإنشاء، والتفرق لا يكون أعظم من العدم.

تخاطب المقارنة ما يعرفه الناس في مقاييسهم: من قدر على البدء لم تُستبعد منه الإعادة. أما قدرة الله فلا يلحقها عجز ولا تعب، ولا تتفاوت عليها الأفعال صعوبةً وسهولة. ثم يرفع القرآن النظر إلى اسمي الكمال: ﴿وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ﴾، فكثرة الخلق لا تنقص القدرة، وتفرق الأجزاء لا يخرجها عن العلم.

وهو بكل خلق عليم

وتتصل القدرة في الجواب بإحاطة العلم: ﴿وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾. امتزاج الأجساد بالأرض، وتفرق الأجزاء، وتغير الصور عبر الزمن لا يضيع عند الخالق هوية نفس ولا يشتبه عليه جسد بجسد. يحفظ البشر بعض الأشياء بسجل وعلامة ثم يلحقهم النسيان والخطأ؛ أما علم الله فمحيط بالخلق قبل وجوده وبعده، لا تجمعه وسائل ولا يستدركه زمن.

لهذا يفسد أن يقيس الإنسان إمكان البعث على حدود قدرته هو. نحن نعجز عن جمع ما تفرق، ونجهل أين ذهب، ونحتاج إلى مادة وأداة ومدة، ثم ننقل هذه الحدود إلى الخبر عن الله. والقرآن ينزع القياس من أصله: المتكلم عن الإعادة هو الخلاق العليم، لا مخلوق محدود يحاول إصلاح ما تهدم.

ترد الحجة المؤمن إلى قدره قبل أن تمنحه جوابًا في المناظرة. الذي بدأه من نطفة قادر على إعادته، والعليم بكل خلق يعلم سره وعمله، ومن بيده ملكوت كل شيء لا يخرج الإنسان من ملكه بالموت. فيورثه الخلق تواضعًا، والعلم مراقبةً، والقدرة يقينًا، والملك استعدادًا للرجوع.

الشجر الأخضر والنار

وسط حجة الخلق الأول يأتي مشهد قريب من حياة المخاطبين: الشجر الأخضر الذي تخرج منه النار. اجتماع الرطوبة التي تراها العين مع النار التي توقد منها يفتح النظر على قدرة الله في إخراج الشيء من موضع لا يتوقعه الإنسان بقياسه المعتاد. وليس المقصود بناء نظرية في طبائع الأشياء؛ المقصود كسر السجن الذي يحبس القدرة الإلهية في المألوف.

كم من تحول يراه الإنسان ثم لا يستغربه لأنه تكرر: غذاء يصير جسدًا، ونطفة تصير إنسانًا، وبذرة تنشق عن شجرة، ووعي يغيب بالنوم ثم يعود. الألفة لا تجعل هذه التحولات من صنع نفسها، ولا تمنحها استقلالًا عن الخالق. فإذا استبعد البعث لأنه لم يشهده من قبل، ذكّره القرآن بأن العالم الذي ألفه مليء بأفعال لو رآها أول مرة لهالته.

ثم يتسع المقطع من خلق الإنسان والشجر إلى السماوات والأرض: ﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم﴾؟ أمام هذا الخلق العظيم يصغر اعتراض العظم الرميم. والجواب

يأتي من داخل السؤال: ﴿بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ﴾. لا يحمل المؤمن نفسه عبء إثبات قدرة الله من خارج أفعاله، السماوات والأرض، وخلقه هو، تشهد بأن الاستبعاد هو الذي يحتاج إلى برهان.

وعدًا علينا

القدرة تثبت الإمكان، لكن اليقين يحتاج فوق ذلك إلى خبر الوقوع. قد يقدر الفاعل على شيء ولا يفعله، أما البعث فقد أخبر الله أنه وعد قضاه:

﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ [الأنبياء: 104].

تجمع الآية بين تفكيك العالم المألوف وإعادة الخلق، ثم تسمي ذلك وعدًا. فاليقين بالبعث لا يقوم على استنتاج أن الإعادة ممكنة فقط؛ يقوم على أن الله الذي لا يخلف وعده أخبر أنه فاعلها. والفرق كبير بين أن تقول: يستطيع، وأن تسمع منه: ﴿وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾.

هنا يستريح القلب من الدوران في الاحتمالات. لم تعد الآخرة فرضيةً عقلية ترجح بين غيرها؛ صارت خبرًا من رب العالمين، تؤيده حجة الخلق الأول، ويثبته وعده. ومن جمع بين المصدر والدليل سلم من طرفين: من إيمان موروث لا يتدبر حجته، ومن حجاج عقلي يثبت الإمكان ثم يقف مترددًا أمام الوقوع.

بدأ مقطع يس بإنسان نسي خلقه، وانتهى بقوله: ﴿فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾. يعود السائل من العظم الذي بين يديه إلى ملكوت الله الذي يحويه ويحوي صاحبه. فلا يخرجه الموت من السلطان، ولا يضيعه التفرق عن العلم، ولا يبدل مرور الزمن الوعد: إليه ترجعون، لا إلى عدم ولا إلى دورة بلا حساب.

أقامت حجة الخلق الأول إمكان الإعادة برد الإنسان إلى بدايته التي أنشأها الله من العدم؛ غير أن تلك البداية ماضية لا يشاهدها بعينه. لذلك يفتح القرآن له شاهدًا آخر متكررًا أمامه: أرضًا يراها ميتة ثم تنهض بالحياة. فالأولى ترد الاستبعاد إلى أصل النشأة، والثانية تجعل معنى الخروج حاضرًا في المشهد الذي يتجدد تحت قدميه.

﴿كَذَٰلِكَ النُّشُورُ﴾

ينزل المطر على أرض يابسة، فتتبدل في أيام. الموضع الذي كان ساكنًا لا يرى فيه إلا التراب يشق عن نبات، وتخرج منه ألوان وحبوب وثمار. يتكرر المشهد حتى تألفه العين، وتبقى دلالته: الحياة تنهض بأمر الله من موضع بدا ميتًا.

والقرآن لا يترك المشهد بلا اسم. يري الإنسان حركة الرياح والسحاب والماء والأرض، ثم يقول له ما الذي ينبغي أن يراه وراءها:

﴿وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَٰلِكَ النُّشُورُ﴾ [فاطر: 9].

ليس الشاهد مجرد تشابه أدبي بين اخضرار الأرض وخروج الأجساد. الذي أرسل الرياح، وساق السحاب، وأنزل الماء، وأحيا البلد الميت، هو الذي ينشر الموتى. الفاعل واحد، والقدرة واحدة، والوحي هو الذي وصل المشهد بالبعث. لذلك لا تُقرأ الطبيعة هنا مصدرًا مستقلًا يخبر بتفاصيل الآخرة؛ تُقرأ آيةً سماها الله، وأرشد القلب إلى معناها.

ويختلف هذا المشهد عن مثل النبات الذي يكشف سرعة الدنيا وفناء زينتها. هناك ينظر القلب إلى الخضرة وهي تتحرك نحو الحطام، فيعرف قصر المتاع. وهنا تمضي الحركة من الموت إلى الحياة، ومن السكون إلى الخروج؛ فتجعل الأرض الميتة شاهدًا على النشور من غير أن يعاد تحليل زينة الدنيا وفنائها.

ماء مبارك وخروج موعود

﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُّبَارَكًا فَأَنبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ ۝ وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ۝ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَٰلِكَ الْخُرُوجُ﴾ [ق: 9-11].

يأتي هذا المقطع في سورة تواجه إنكار البعث. وقبل أن تنقل القارئ إلى سكرة الموت والسائق والشهيد، تفتح له صفحة السماء والأرض. الماء مبارك، والنخل باسقات، والطلع نضيد، والرزق للعباد؛ ثم تظهر الجملة التي تحمل المشهد كله إلى غايته: ﴿كَذَٰلِكَ الْخُرُوجُ﴾.

لم يقل القرآن إن المطر يذكرك بالخروج وحسب، بل قرر المشابهة التي يقيم بها الحجة. الأجساد التي استقرت في الأرض لا تخرج من سلطان الله، كما أن البذور المستورة في ترابها لم تكن غائبةً عن تدبيره. وحين يأتي أمره لا يحتاج الميت إلى أن يصنع في نفسه حياة؛ الحياة تأتيه من الذي أحيا الأرض.

وفي اختيار لفظ الخروج معنى يتجاوز عودة الوظائف الجسدية. هناك انتقال من باطن الأرض إلى الوقوف، ومن الغياب عن الناس إلى الظهور أمام رب العالمين. الموتى ليسوا فكرةً محفوظة في علم التاريخ؛ سيخرجون. وكل قارئ للآية داخل في هذا الجمع، مهما شعر الآن بخصوصية حياته وبعد يومه عن تلك الساعة.

اقتران النشور بالرزق يفتح وجهًا آخر. الماء الذي يحيي الأرض رحمة يعيش بها الناس، والقدرة التي ستخرجهم ليست قدرةً غريبة لم يعرفوا آثارها. هم يأكلون كل يوم من حياة أنشأها الله في الأرض، ثم يستبعد بعضهم أن يعيدهم. النعمة نفسها تحمل حجة، غير أن الألفة قد تحجبها. يأخذ الإنسان الثمرة، وينسى اليد التي أخرجتها من التراب، ثم يسأل كيف يخرج هو من التراب.

فانظر إلى آثار رحمة الله

يقول الله تعالى:

﴿فَانظُرْ إِلَىٰ آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الروم: 50].

يسمي القرآن ما نراه في الأرض آثار رحمة الله. ليست الحجة هنا قدرةً مجردة تحيي ثم تمضي؛ إنها رحمة ينزل بها الماء، وتنتشر بها الحياة، ويقوم بها معاش الخلق. وهذا الاسم يحفظ للقلب توازنه حين يفكر في البعث. الذي يعيد الخلق هو ربهم الذي ظهرت آثار رحمته في كل حياة، لا قوة مجهولة تسوقهم إلى مصير مبهم.

وفي تسمية إحياء الأرض أثرًا من آثار رحمة الله يجتمع التعظيم والرجاء. يخاف المؤمن الوقوف لأن الحساب حق، ويرجو الذي يبعثه لأن رحمته سبقته قبل أن يملك عملًا: خلقه ورزقه وأرسل إليه وفتح له التوبة. فالقدرة التي تثبت النشور ليست قوةً مجهولة؛ هي قدرة الرب الذي ظهرت رحمته في كل حياة، ثم يبعث عباده إلى عدله وفضله.

الخلق يتغير أمامك

وتجمع سورة الحج دليلين في مقطع واحد: أطوار الإنسان، وحياة الأرض. تخاطب من كان في ريب من البعث، ثم ترده إلى جسده وإلى ما يراه:

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ۝ ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝ وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِي الْقُبُورِ﴾ [الحج: 5-7].

في سورة الحج يحمل الإنسان الدليل في جسده ويراه في الأرض معًا: أطوار لم يخترها ولم يصنعها، ثم ضعف وقوة وتغير لا يتوقف. فالبدن الذي يتوهمه ثابتًا آية متحركة في الخلق والتقدير.

ولا تُحَمَّل الآية تفاصيل علمية لم تتعمد بيانها؛ حجتها أبقى من المصطلحات المتغيرة: الذي أنشأ الإنسان في أطوار، ورد القوة إلى ضعف، قادر على بعثه.

ثم تجاور أطوار الجسد أرضًا هامدة تهتز وتربو وتنبت؛ فتلتقي في النص آية يحملها الإنسان في نفسه وآية يراها متكررةً أمامه، وتنتهي كلتاهما إلى النتائج التي صرحت بها الآيات: الله هو الحق، يحيي الموتى، والساعة آتية، والقبور ستفتح.

فلا يقف النظر عند عجائب الجسد والنبات؛ يعبر منها إلى الله الحق وإلى الساعة والبعث.

بين الإيمان وطمأنينة القلب

وتعود قصة إبراهيم عليه السلام هنا لتبين أن زيادة الطمأنينة نعمة يهبها الله لعبده، لا شرطًا يعلّق عليه أصل الإيمان. أُعطي إبراهيم آيةً خاصة، وأُعطيت الأمة وحيًا يفسر لها دلالات الخلق المتجددة.

وعرض القرآن خبر الذي مر على قرية وهي خاوية على عروشها فقال: ﴿أَنَّىٰ يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾، فأماته الله مئة عام ثم بعثه، وأراه في طعامه وشرابه وحماره كيف يجمع الله ما تفرق [البقرة: 259]. لا يتعلق أثر الخبر بتعيين الرجل أو القرية؛ فقد أراه الله أن ما استبعده يقع بأمره.

وفي قصة أصحاب الكهف علامة أخرى، فقد أقام الله فتيةً من نوم طويل، ثم أطلع الناس عليهم ﴿لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا﴾ [الكهف: 21]. لم تكن قصتهم برهانًا تجريبيًا

متكررًا يضعه البشر متى شاءوا، لكنها آية تاريخية ساقها القرآن ضمن حجج اليقين. النوم الذي يشبه الموت، وبقاء الأجساد، ثم الاستيقاظ بعد قرون، يفتح نافذة على قدرة لا يحكمها ما ألفه الناس من مدد.

لكل حجة وظيفتها: الخلق الأول يرد المستبعد إلى بدايته، والأرض الميتة تقرب النشور إلى العين، وأطوار الجسد تكشف التغير في النفس، والقصص تعرض آيات مخصوصة. ويجمعها خبر الله؛ فالكون وحده لا يسمي هذه الحركة بعثًا ولا حسابًا، والوحي هو الذي يقول: ﴿كَذَٰلِكَ النُّشُورُ﴾، ﴿كَذَٰلِكَ الْخُرُوجُ﴾.

أن ترى العلامة ولا تعبر منها

قد تمر مواسم المطر، ويرى الإنسان مولودًا ينشأ وشيخًا يضعف وجسدًا يموت، ثم يحبس هذه المشاهد في تفسيرها القريب. يعرف بعض الكيفيات، ولا يعبر منها إلى الخالق والغاية والمصير.

وصف السنن التي خلقها الله نافع، لكنه لا يحول السبب إلى خالق ولا يغني عن سؤال الغاية. معرفة الإنبات وأطوار الجنين تكشف بعض التدبير، ولا تنزع الفعل من الله.

وفي المقابل لا يعلّق المؤمن صدق الآية على اكتشاف متغير ولا يطلب إعجازًا متكلفًا؛ حجة القرآن قائمة في أصل الخلق والتغير والإحياء. يستفيد من العلم، ويبقى المصدر محفوظًا: الله يخبر بالبعث، والخلق يشهد لقدرته.

وبهذا النظر يظل المطر رزقًا ورحمةً، ويصير كذلك شاهدًا هادئًا على الخروج. لا تتحول كل قطرة إلى موعظة ثقيلة؛ يكفي أن يعرف القلب أن من أحيا الأرض وعد أن يحيي الأجساد.

ومع كثرة هذه الحجج، يبقى بعض الناس يسأل: متى؟ وقد لا يكون السؤال بحثًا عن موعد، بل طريقةً لتأخير أثر الخبر. هنا ينتقل القرآن من البرهان إلى داخل الإنسان، من العظام والأرض إلى الإرادة التي تريد أن يبقى الطريق أمامها مفتوحًا.

بَلْ يُرِيدُ الْإِنسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ

﴿لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ ۝ وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ ۝ أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُ ۝ بَلَىٰ قَادِرِينَ عَلَىٰ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُ ۝ بَلْ يُرِيدُ الْإِنسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ ۝ يَسْأَلُ أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ ۝ فَإِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ ۝ وَخَسَفَ الْقَمَرُ ۝ وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ ۝ يَقُولُ الْإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ

﴿الْمَفَرُّ ۝ كَلَّا لَا وَزَرَ ۝ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ ۝ يُنَبَّأُ الْإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ۝ بَلِ الْإِنسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ ۝ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُ﴾ [القيامة: 1-15].

تبدأ السورة بالقسم بيوم القيامة وبالنفس اللوامة. ويجاور القسمُ باليوم القسمَ بالنفس التي تلوم صاحبها؛ وتوحي مجاورة القسمين بصلة بين يوم الجزاء والنفس التي تراجع وتلوم، فلا تمر أفعالها عندها سُدًى بلا محاسبة. لا يلزم من وجود هذا الشعور أن يهتدي صاحبه وحده إلى تفاصيل الجزاء، لكنه يكشف أن معنى المسؤولية ليس غريبًا عن تكوينه.

ثم يجيء السؤال عن جمع العظام، والجواب يتجاوز الجمع إلى تسوية البنان. الأطراف الدقيقة التي تتميز بها الخلقة داخلة في القدرة. القرآن لا يكتفي بإعادة هيكل عام؛ يثبت أن الذي أنشأ الإنسان قادر على أن يعيده على دقته. غير أن السورة لا تبقى طويلًا عند القدرة، بل تنتقل بحرف واحد إلى الإرادة: ﴿بَلْ يُرِيدُ الْإِنسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ﴾.

حين يكون السؤال ستارًا

ذكر المفسرون في الآية معاني متقاربة: يريد أن يمضي في معاصيه فيما يستقبل، ويقدم الذنب ويؤخر التوبة، أو يكذب بما أمامه من البعث والحساب. ويجمعها أن المشكلة ليست عجزًا عن فهم الحجة وحده؛ الإنسان يريد مستقبلًا لا يقطعه حساب، فيدفع الخبر الذي يضع حدًا لفجوره.

هذه الآية لا تمنحنا حق اتهام كل سائل أو صاحب شبهة بأن وراء كلامه معصية خفية. في الناس من يلتبس عليه الدليل، ومن يحمل سؤالًا صادقًا، ومن يحتاج إلى بيان وصبر ورحمة. والقرآن نفسه أقام الحجج ولم يكتف بكشف الهوى. لكن الإنصاف نفسه يقتضي ألا نجعل الفكر منفصلًا دائمًا عن الإرادة. الإنسان لا ينظر بعقل عائم خارج رغباته؛ قد يحب نتيجةً فيبحث عما يثبتها، ويكره تكليفًا فيضخم ما يعارضه، ويؤخر التوبة فيحتاج إلى تصور يخفف عنه اقتراب الحساب.

وهذا المعنى لا يخص المنكر الصريح. المؤمن الذي لا يشك في اليوم الآخر قد يتعامل معه في بعض قراراته كأنه مستبعد. لا يقول: لن أبعث، لكنه يقول بفعله: ما زال أمامي وقت. يقدم الذنب ويضع التوبة في غد، يؤخر رد المظلمة، ويبني حياته على أن الفرصة ستظل مفتوحة. صار السؤال «متى؟» في داخله وسيلةً لتوسيع المسافة، مع أنه لا يملك من عمره إلا اللحظة التي هو فيها.

ويظهر الفجور أمام الإنسان في صور كثيرة. قد يريد أن يظل طريق الكسب مفتوحًا ولو دخله الحرام، وأن يبقى لسانه طليقًا في الأعراض، وأن يحتفظ بعلاقة يعرف فسادها، وأن يؤجل ما وجب عليه حتى

تأتي نسخة أكثر قوة من نفسه. لا ينكر الحكم ولا الجزاء، لكنه يطلب مهلةً لم تُعط له. وكل تسويف يفتح طريق المعصية أو يؤخر واجبًا بلا عذر يحمل جزءًا من هذا الخطر.

يسأل أيان يوم القيامة

بعد بيان الإرادة يأتي السؤال: ﴿يَسْأَلُ أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ﴾. لم تجبه السورة بتاريخ، بل نقلته إلى اليوم نفسه: برق البصر، وخسف القمر، وجمعت الشمس والقمر، وطلب الإنسان المفر. الذي كان يسأل عن الزمن صار داخل الحدث، وانقلب السؤال من «متى؟» إلى «أين المفر؟».

هذه الحركة تعلم أن معرفة الموعد ليست هي التي تصنع الاستعداد. أخفى الله وقت الساعة، وأخفى عن كل نفس وقت موتها، وأقام من اليقين ما يكفي للعمل. لو عُرف الموعد ربما حاول المسوف أن يجعل الطاعة في آخر الطريق، مع أن العبودية حق لله في العمر كله، والتوبة ليست حيلةً زمنية للنجاة من العقوبة بعد استيفاء الشهوة.

ويقول الله في مطلع سورة الأنبياء: ﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ﴾ [الأنبياء: 1]. الاقتراب هنا لا يفتح باب تحديد السنين، يرد الإنسان إلى حقيقة أن كل آت قريب، وأن ما بقي من عمره أقصر مما مضى، وأن الحساب يقترب منه ولو لم يعرف موعد الساعة العامة. الغفلة ليست جهلًا كاملًا، الآية تصف قومًا يأتيهم الذكر فيستمعونه وقلوبهم لاهية. وصل الصوت، ولم يدخل الأثر.

وجاء البيان النبوي يحمل معنى القرب في صورة لا تحتاج إلى جدول أشراط. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

«بُعِثْتُ أَنَا وَالسَّاعَةُ كَهَاتَيْنِ» وأشار بالسبابة والوسطى (صحيح البخاري، 6504؛ صحيح مسلم، 2951).

رسالته صلى الله عليه وسلم خاتمة الرسالات، وبعدها تمضي الأمة نحو الساعة. والحديث لا يدعو إلى ترك العمل بحجة قرب النهاية، فقد أقام النبي صلى الله عليه وسلم دولةً وربى أمةً وخطط وبنى. إنه ينزع من القلب وهم أن القيامة قصة بعيدة تخص أجيالًا مجهولة. منذ بُعث خاتم النبيين دخل العالم طوره الأخير، وكل فرد أقرب إلى آخرته من الزمن الذي يتخيله.

لا وزر

حين يقع ذلك اليوم يقول الإنسان: ﴿أَيْنَ الْمَفَرُّ﴾؟ ويأتي الجواب: ﴿كَلَّا لَا وَزَرَ﴾. لا ملجأ يعصم، ولا جهة تخرجه من الملك. في الدنيا يستطيع أن يغادر مجلسًا، أو يخفي ورقة، أو يستعين بنفوذ، أو يؤجل محكمة. ذلك اليوم لا تنفع فيه مهارة الهروب التي أتقنها؛ ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ﴾.

والوقوف عند لفظ «ربك» يرد المشهد إلى الله. المستقر إليه، والحكم له، وهو الذي ربى وأنعم وأرسل وحذر. فالقيامة رجوع إلى الرب، لا آلة عقاب تعمل وحدها؛ ويجتمع في القلب الحياء مع الخوف: كيف استعمل نعمه في مخالفته؟ وكيف فر من ندائه وهو راجع إليه؟

ثم ينتقل المشهد إلى العمل: ﴿يُنَبَّأُ الْإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ﴾. كل ما ظنه انقضى يعود خبرًا حاضرًا. ما قدمه من فعل، وما أخره من أثر أو واجب، وما تركه وراءه؛ لا يضيع في مرور الأيام. الزمن يبعد الحدث عن ذاكرة صاحبه، لكنه لا يبعده عن علم الله ولا عن كتابه.

على نفسه بصيرة

تختم هذه الحركة بقوله: ﴿بَلِ الْإِنسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ ۝ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُ﴾. قد يملك المرء قدرة عالية على شرح موقفه للناس، ويعيد صياغة دافعه حتى يبدو نبيلاً، ويجمع من الظروف ما يخفف به لوم نفسه. غير أن وراء هذه الطبقات معرفةً لا تمحي كلها: يعرف موضع الهوى، واللحظة التي انحرف فيها، والحق الذي تهرب منه.

ليست الآية إلغاءً للأعذار الصحيحة التي اعتبرها الشرع، ولا دعوةً إلى اتهام النفس بما لم تفعل. إنها تكشف المعاذير التي تُلقى لتغطية الحقيقة. والله أعلم بالعبد من نفسه، لكن الإنسان نفسه لا يكون يومئذ خاليًا من الشهادة؛ كتابه وجوارحه وبصيرته تقطع طريق التمثيل.

ومن آثار اليقين أن يصدق العبد مع نفسه قبل يوم الانكشاف. لا ينتظر سقوط الأعذار، بل يمتحنها الآن: أكان العجز حقيقيًا، أم خاف أن تنقص صورته؟ وهل طلب البيان بصدق، أم وجد في الشبهة مخرجًا لما يريد؟

لا يجيب عن هذه الأسئلة بقسوة تعميه عن ضعفه وحاجته إلى الرحمة، ولا بتساهل يترك الداء. يضع نفسه بين علم الله وباب التوبة. ما دام زمن الاختيار مفتوحًا، يمكن أن يتحول انكشاف الدافع إلى نجاة: يعترف، ويستغفر، ويرد، ويقطع السبب، ويستعين بربه. أما المعذرة التي تُلقى لتمنع التوبة فهي أشد خطرًا من الذنب الذي يعرف صاحبه أنه ذنب.

حين تصير الآخرة أمامك

قالت الآية: ﴿لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ﴾. أمام الإنسان زمن يظنه واسعًا، وأمامه كذلك يوم القيامة. أي الأمرين يملأ نظره؟ من رأى المستقبل مساحةً للشهوة أخّر التوبة، ومن رآه طريقًا إلى الله قدم لنفسه. واليقين لا يلغي التخطيط للدنيا؛ يعيد وضع الغد كله تحت الملك. يخطط لعلم وعمل وأسرة ومشروع، ويعلم أن أجله قد يسبق خطته، وأن قيمة ما يبنيه في الأثر الذي يلقى الله به.

لذلك لا يظهر اليقين في ترك الطموح، وإنما في تصحيح وجهته وحدوده. قد يعمل المؤمن لسنوات في مشروع نافع، ويعد لأبنائه، ويحفظ ماله، ويطلب تقدمًا علميًا ومهنيًا. الفارق أنه لا يجعل نجاح الخطة دليلًا على نجاته، ولا يسمح لها أن تشتري دينه، ولا يؤجل حق اليوم باسم صورة الغد.

ويظهر اليقين في التوبة خاصة. المسوف ينتظر شعورًا كاملًا، أو ظرفًا أهدأ، أو عمرًا تقل فيه الشهوة. أما من صدق باقتراب الحساب فيبدأ بما يقدر عليه الآن. قد لا يصلح كل شيء في ليلة، لكنه يكسر طريق الفجور أمامه: يوقف ذنبًا، أو يبتعد عن سببه، أو يرد جزءًا من حق، أو يطلب عونًا، أو يصدق في ندمه. الخطوة التي تقع اليوم أثقل من توبة كاملة لا تزال وعدًا في الخيال.

ويظهر في تلقي الشبهات. لا يخاف السؤال الصادق، ولا يغلق باب البحث، لكنه يسأل قلبه مع عقله: هل أريد الحق ولو خالف ما أحب؟ هل أعطي الدليل فرصةً متساوية؟ هل أطلب البيان من أهله، أم أجمع ما يوسع لي الطريق؟ هذا التفقد لا يبطل قيمة البرهان؛ يحمي طالب البرهان من أن يكون الخصم والحكم في آن واحد.

المحور الذي يبدأ به الطريق

بدأ الطريق بالوحي: ﴿وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾. ثم رد الإنسان إلى نفسه: ﴿أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ﴾. وفتح عينه على الأرض: ﴿كَذَٰلِكَ النُّشُورُ﴾. ثم دخل إلى إرادته: ﴿بَلْ يُرِيدُ الْإِنسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ﴾.

بهذه الآيات لم يبق اليقين خبرًا مجردًا؛ صار حكمًا على القرار القريب: حق يُرد، وطاعة تبدأ، ومشروع نافع لا تُشترى به معصية، وسؤال يطلب الحق لا مخرج الهوى.

ولا يُملأ القلب بصور القيامة حتى يعجز الإنسان عن عيشه؛ يكفي أن يستقر فيه حكم لا تبدله اللحظة: وعد الله واقع، والعمل باق، والتأجيل لا يباعد الحساب.

لكن القدرة والوعد يفتحان سؤالًا وراء إمكان البعث: ما الذي يكون من حكمة الخلق وعدله لو لم يكن رجوع؟

﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ [المؤمنون: 115].

المحور الثاني: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا﴾

الذي أنشأ الخلق أول مرة قادر على إحيائهم، والأرض الميتة شاهد متكرر على الخروج. غير أن القدرة تجيب عن إمكان البعث، ويبقى السؤال الذي يحدد معنى الحياة: لماذا يكون الرجوع؟ وما الذي يضيع لو انتهى الإنسان عند موته، وبقي عمله وألمه وحقوقه موزعةً بين نتائج ناقصة لا يجمعها حكم أخير؟

يأتي الجواب القرآني من موضع أعمق من مجرد الحاجة الإنسانية إلى خاتمة عادلة. فالرجوع داخل في حكمة الخلق وملك الله الحق. ومن يفصل البداية عن النهاية يرى حياة مبتورة: ولادةً تتبعها رغبات وصراعات وأعمال، ثم موتًا يمحو الصفحة من غير أن يظهر تمام معناها. أما القرآن فيقرأ القصة من خاتمتها الحقة؛ خلق وابتلاء وكدح، ثم رجوع وتوفية وانكشاف وجزاء.

الرجوع ينتظم به أول الطريق وآخره: خلق وابتلاء، وكدح لا يضيع، وموت يغلق زمن الاختيار، ثم برزخ وبعث. بهذا لا تحتكر الدنيا تفسير النجاح والخسارة، ولا يصبح ما انقطع فيها هو الحكم الأخير.

قد ترى عملًا صالحًا لم تظهر ثمرته، وظلمًا لم يستوف عقابه، وألمًا لم تعرف حكمته، ومحاولةً صادقة انتهت في ظاهرها إلى خسارة. لو كان الحاضر هو الحكم الأخير لاختلطت المقاييس؛ أما الرجوع إلى الملك الحق فيمنع المرحلة من أن تدعي أنها القصة كلها.

﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا﴾

تسير خاتمة سورة المؤمنون بالإنسان من اللحظة التي يطلب فيها الرجوع إلى السؤال الذي يكشف معنى الخلق كله. يقول الله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ ۝ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [المؤمنون: 99–100]. ثم تذكر النفخ والموازين ومصير الخاسرين، وتسألهم عن مدة لبثهم، حتى تبلغ التوبيخ الجامع: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ۝ فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ﴾ [المؤمنون: 115–116].

لا تأتي آية نفي العبث فكرةً فلسفية معزولة عن المصير الذي سبقها. السورة عرضت إنسانًا انتهى زمن عمله فتمنى الرجعة، ثم برزخًا، ثم بعثًا ووزنًا وخسرانًا، ثم أعادت القارئ إلى أصل القصة: أكان يمكن أن يُخلق الإنسان قادرًا على الإيمان والكفر، والطاعة والعصيان، والعدل والظلم، ثم تنتهي هذه الاختيارات

بلا رجوع؟ سؤال السورة نفسه يحمل الجواب؛ غياب الرجوع يحول التكليف والاختيار إلى قصة لا يظهر حكمها ولا تستوفي عواقبها.

وجود منافع الدنيا وعلاقاتها ونجاحاتها لا يجيب عن غايتها الأخيرة. يبني الإنسان ويزرع ويتعلم ويحب وينفع الناس، وقد يرى لعمله نتائج واسعة؛ لكن القصة تظل ناقصة إذا بقي الصادق مجهولًا، والمرائي ممدوحًا، والمظلوم بلا حق كامل، والظالم خارج الحساب. ربط القرآن نفي العبث بالرجوع لأن ما لم يستوفه الحاضر يستوفيه حكم الملك الحق.

ويعود المعنى في خاتمة سورة القيامة بسؤال واحد يكشف فساد الميزان كله: ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾ [القيامة: 36]. ثم ترده السورة إلى خلقه الأول، وتختم بالقدرة على إحياء الموتى. فمن لم يخلق الإنسان بغير علم ولا تقدير لا يتركه بعد التكليف والاختيار بلا رجوع.

وفي سورة ص يظهر أن نفي الباطل متصل بالعدل بين المختلفين في العمل: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ ۝ أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ﴾ [ص: 27-28]. ما بين نفي الباطل ورفض التسوية بين المصلح والمفسد رابطة لا تنفصل: الخلق الحكيم يستلزم أن يظهر الفرق الذي حاولت الدنيا أحيانًا أن تطمسه.

ويحرر هذا اليقين المؤمن من أن يقيس حكمة الله بقدر ما انكشف له الآن، أو يملأ المسكوت عنه بتفسيرات جازمة. يعرف أن الملك الحق لا يخلق عبثًا، ويقف بتواضع أمام تفاصيل لم يكشفها الوحي؛ فلا يجعل جهله بالحكمة دليلًا على غيابها، ولا يزعم أنه أحاط بسر كل فصل.

الثقة بحكمة الله تزيد المؤمن قيامًا بما كُلّف، ولا تسوّغ الرضا بالظلم أو ترك الأسباب. يدفع الفساد لأن الفرق بين الإصلاح والإفساد محفوظ، ويطلب الحق لأن العدل أرسخ من رغبة بشرية عابرة، ويصبر إذا تأخر تمام النتيجة من غير أن يسمي العجز صبرًا أو الاستسلام توكلًا.

ثم ترتفع الآية من سؤال الإنسان إلى تنزيه ربه: ﴿فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ﴾. هنا يبلغ نفي العبث أصله الأصفى؛ فالملك كله له، والحق وصفه ووعده وحكمه، ولا يضيع في ملكه عمل ولا مظلمة ولا دمعة خفيت عن الناس. وكل ما تفرق في الدنيا مجموع عنده، وكل ما خفي ظاهر لعلمه، وكل حكم ناقص منتهٍ إلى حكمه الكامل.

عش يومك كمن خُلق ليرجع، لا كمن تُرك سدى. وما دام الرجوع حقًا، فكل أمانة لها وزن، وكل اختيار يكتب جزءًا من الجواب الذي ستلقاه.

﴿وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾

إذا كان الخلق لم يقع عبثًا، لم تصلح الدنيا موضعًا للحكم النهائي. وفي الآية يتقدم معنى التوفية، أما تعريف الفوز فسيأتي في موضعه. يقول الله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ [آل عمران: 185]. لا تقول الآية إن الإنسان لا يذوق في الدنيا أثر عمله، فقد يعجل الله خيرًا أو عقوبة، وقد يجد الطائع سكينة والعاصي ضيقًا، وقد تظهر للعمل نتائج في الناس والحياة. اللفظ الأدق هو التوفية: تمام الأجر وكمال الجزاء يوم القيامة.

وتأتي الآية في سياق يهيئ المؤمن لاحتمال الأذى والابتلاء، فلا تمنحه وعدًا بأن طريق الحق سيقاس براحة عاجلة، ولا تتركه أسيرًا للألم. الموت آت، والتوفية هناك، والفوز عُرّف تعريفًا لا يبقي لميزان الناس سلطانًا عليه: أن يزحزح العبد عن النار ويدخل الجنة. وما سوى ذلك مرحلة قد تحمل بشائر أو إنذارات، لكنها لا تملك إصدار الحكم الأخير.

ويفتتح الله سورة الملك بإظهار الملك والقدرة، ثم يقول: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ﴾ [الملك: 2]. الموت والحياة داخلان في الخلق، والغاية المعلنة ابتلاء العمل. لم يقل: أيكم أكثر حظًا، أو أطول عمرًا، أو أسرع وصولًا إلى ما يريد؛ قال: ﴿أَحْسَنُ عَمَلًا﴾. بذلك تنتقل قيمة الحياة من مقدار ما جمعه الإنسان فيها إلى صفة ما قدمه تحت نظر الله.

واقتران الابتلاء باسمَي العزيز والغفور يحفظ القلب من انحرافين. العزيز لا يعجزه أن يظهر حقيقة الأعمال ويجزي عليها، فلا يتوهم ظالم أن طول المهلة غلبة، ولا يظن مخلص أن خفاء عمله ضياع. والغفور يفتح داخل الامتحان باب الرجوع، فلا تتحول المسؤولية إلى قنوط، ولا يصبح الخطأ القديم حكمًا يمنع إصلاح ما بقي.

ويولد من الخلط بين دار الابتلاء ودار التوفية كثير من الاضطراب. قد يبذل الإنسان خيرًا ثم لا يرى أثره الذي توقعه، فيسأل: ما فائدة ما فعلت؟ وقد يستقيم زمنًا ثم تضيق عليه أسباب الدنيا، فيتسلل إلى قلبه

أن طاعته لم تنفعه. وقد يرى من تجاوز الحدود أوسع منه مالًا أو نفوذًا، فيوشك أن يمنح النتيجة العاجلة معنى الرضا الإلهي. كل ذلك يصدر عن استعجال كشف النتيجة في موضع لم يُجعل لاستيفائها.

ولنتائج الدنيا دلالاتها، لكنها لا تنوب عن الحكم الكلي. النعمة تستوجب الشكر وقد تكون ابتلاءً، والمصيبة قد يرفع الله بها أو يكفر، والعمل الصالح له ثمرات عاجلة؛ غير أن ظاهر الحال لا يكشف باطن الإنسان ولا مآله. يبقى الحد الآمن الذي ترسمه الآية: العمل هنا، والتوفية هناك، والله أعلم بمن اتقى.

وتأتي السنة بمشهد لا يستطيع التحليل المجرد أن يقوم مقامه. قال النبي صلى الله عليه وسلم: «يُؤْتَى بِأَنْعَمِ أَهْلِ الدُّنْيَا مِنْ أَهْلِ النَّارِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَيُصْبَغُ فِي النَّارِ صَبْغَةً، ثُمَّ يُقَالُ: يَا ابْنَ آدَمَ، هَلْ رَأَيْتَ خَيْرًا قَطُّ؟ هَلْ مَرَّ بِكَ نَعِيمٌ قَطُّ؟ فَيَقُولُ: لَا وَاللَّهِ يَا رَبِّ. وَيُؤْتَى بِأَشَدِّ النَّاسِ بُؤْسًا فِي الدُّنْيَا مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ، فَيُصْبَغُ صَبْغَةً فِي الْجَنَّةِ، فَيُقَالُ لَهُ: يَا ابْنَ آدَمَ، هَلْ رَأَيْتَ بُؤْسًا قَطُّ؟ هَلْ مَرَّ بِكَ شِدَّةٌ قَطُّ؟ فَيَقُولُ: لَا وَاللَّهِ يَا رَبِّ، مَا مَرَّ بِي بُؤْسٌ قَطُّ، وَلَا رَأَيْتُ شِدَّةً قَطُّ» (صحيح مسلم، 2807).

يقر الحديث حقيقة النعيم الذي عاشه الأول والألم الذي ذاقه الثاني، فلا يهوّن وجع الناس ولا يسقط مواساتهم. لكنه يكشف سلطان المصير النهائي على قراءة العمر كله: صبغة واحدة لا تمحو الوقائع من علم الله، لكنها تسقط دعوى أن اللذة العابرة كانت فوزًا أو أن الشدة العابرة كانت خسرانًا. وما ملأ سنوات الدنيا يصغر أمام دار لا تنقضي.

وبهذا يتغير معنى الصبر. يتألم المؤمن ويطلب حقه ويدفع ما يستطيع، لكنه يمتنع عن إصدار حكم نهائي من مرحلة لم تكتمل. لا ينكر الوجع، ولا يسمي العجز صبرًا، وفي أعماقه يقين أن التوفية لم تقع بعد.

ويتغير معنى النجاح كذلك. قد تنجح خطة وتفسد القلب، وقد يفشل مشروع ويبقى لصاحبه صدق وبذل وأجر، وقد يجتمع خير الدنيا والآخرة، وقد يفترقان. المؤمن لا يحتقر النجاح الدنيوي ولا يهمل أسبابه، لكنه يرفض أن يمنحه سلطة تعريف نفسه ومآله. النجاح الحاضر نعمة أو اختبار؛ أما الفوز الذي ختمت به الآية فنجاة ودخول.

حين يطول فصل لا تفهمه، لا تسمه الكتاب كله. وحين تأتيك نتيجة تحبها، لا تجعلها شهادة نهائية. ما زالت الصفحة مفتوحة، والتوفية أمامك، والملك الذي خلق الموت والحياة يرى أي العمل أحسن.

﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنتَهَىٰ﴾

لا ينتهي الإنسان إلى نتيجة مجردة، ولا يعود إلى قانون كوني بلا وجهة؛ يقول الله تعالى: ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنتَهَىٰ﴾ [النجم: 42]. كلمتان تعيدان جمع ما يتفرق في الحياة: إلى ربك. قد تتعدد الطرق

والأعمال والمخاوف والآمال، وقد ينشغل المرء في كل مرحلة بهدف قريب، لكن الكدح كله يتحرك نحو منتهى واحد لا يتجاوزه أحد.

ويقول سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ﴾ [الانشقاق: 6]. لم تجعل الآية الكدح احتمالًا خاصًا بأصحاب المشاريع الكبرى؛ الإنسان كادح بحكم مسيره. يمضي جسده في العمر، وتمضي أعماله في الكتاب، وتمضي إرادته من اختيار إلى اختيار. قد يكدح في جمع ما يتركه، أو في طاعة تبقى له، وقد يهرب من التفكير في النهاية، لكنه لا يخرج من السير إليها؛ فهو ملاقٍ ربه، وملقٍ عنده كدحه وعمله.

قوله: ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ يملأ الرجوع بمعنى الربوبية. الذي خلق وربى ورزق ودبر، وحمل العبد في أطوار لم يكن يملك فيها لنفسه شيئًا، هو منتهى المسير. يقف المخلوق بين يدي ربه، لا أمام مجهول ولا في قوة عمياء؛ فتجتمع في الرجوع هيبة تردع، وأنس يثبت، وافتقار يعيد الإنسان إلى قدره.

ويقول الله تعالى: ﴿مَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [العنكبوت: 5]. الرجاء لا يلغي الأجل، والأجل لا يطفئ الرجاء. وما بينهما يحضر الاسمان: السميع العليم. يسمع ما يقوله العبد في طريقه، ويعلم ما يخفيه وما يحتمله وما يقصده. قد يضيع صوت المخلص بين أصوات أعلى، وقد يخفى تعبه عن أقرب الناس، لكنه لا يكدح في فراغ.

هنا تستقيم الجهة: الحياة ذاهبة إلى الله. وإذا استقامت الجهة تبدل سؤال القرار؛ فلا ينظر العبد إلى ما سيكسبه قريبًا وحده، بل يرى إلى من يذهب بهذا العمل، وكيف يحب أن يلقاه به، وهل يقوده ما اختار إلى طاعة أو معصية.

ويحرر المنتهى القلب من التشتت بين أحكام الناس. رضاهم نافع في مواضع، ونصيحتهم مطلوبة، وحقوقهم لازمة، لكنهم لا يملكون المنتهى. قد يمنحون لقبًا أو يسحبونه، يرفعون صورة أو يطمسونها، يعرفون ظاهرًا ويجهلون سريرة؛ ثم ينتهي الجميع إلى رب واحد. من عاش لهذه العيون وحدها أتعبه تغيرها، ومن راقب الله لم يحتقر الخلق ولم يعبد تقديرهم.

ويعيد المنتهى وزن ما لا يراه أحد: وجع لا يجد لغة، ومجاهدة تقع في القلب، وعمل يخفى عن أقرب الناس. ما حُمل لله لا يسقط خارج علمه، ولا تبقى العبادة محطة منفصلة عن بقية اليوم؛ فالعمل والمال والعلاقة والصمت والقرار الخفي كلها تمضي بصاحبها إلى النهاية نفسها. قد تختلف صورها، لكن جهة القلب تجمعها: لله بدأت، وبأمره انضبطت، وإليه تمضي.

والطريق يمضي بك على كل حال؛ غير أن قلبًا عرف منتهاه لا تستهلكه الغايات الصغيرة، ولا يضل عن الجهة وهو يقطع الطريق.

﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ﴾

قبل أن تذكر سورة ق سكرة الموت، تفتح المشهد من داخل الإنسان: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ۝ إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ ۝ مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: 16-18]. علم بالوسوسة، وكتابة للقول، ثم تأتي العتبة التي ينتهي عندها زمن الإضافة إلى العمل.

يقول الله تعالى: ﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾ [ق: 19]. جاء الموت بعد أن كان الإنسان يتحرك بعيدًا عن ذكره أو يؤخر مقتضاه. ولفظ ﴿تَحِيدُ﴾ لا يصف مجرد رغبة طبيعية في البقاء؛ يكشف محاولة النفس أن تجعل الحقيقة على طرف الوعي حتى لا تضغط على قرارها. لكن ما حادت عنه جاءها، ولم يعد خبرًا يخص الآخرين.

قبل السكرة يستطيع الإنسان أن يتوب ويرد ويصلح ويغير وجهته، وبعدها ينتقل من صناعة العمل إلى تلقي ما قدم. ولهذا كان أشد ما يطلبه من حضره الموت في سورة المؤمنون شيئًا واحدًا: فرصة عمل.

﴿قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ ۝ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ﴾. لم يقل: لعلني أعرف ما كنت أجهل، أو أرى ما كنت أنكره فحسب؛ طلب الرجعة ليعمل. انكشاف الحقيقة عند انغلاق العمل لا ينفع النفع الذي كان يمكن أن يصنعه إيمان الغيب قبلها. ثم يأتي الرد الذي يقطع وهم الفرصة المؤجلة: ﴿كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا﴾ [المؤمنون: 99-100].

وهذا يجعل التسويف أخطر من مجرد سوء تنظيم. المؤجل لا يؤجل فعلًا فقط؛ يبني ضمنًا على أنه سيملك زمنًا آخر يشبه هذا الزمن، وقلبًا آخر قادرًا على التوبة، وظرفًا أنسب للطاعة. والموت لا يفاوض هذه الافتراضات. قد يأتي والنية الصالحة ما زالت نية، والحق لم يرد، والاعتذار لم يقل، والحد الذي عزم صاحبه أن يقف عنده قد تجاوزه مرة أخرى.

ولا يحتاج هذا الموضع إلى أن نملأ لحظة الاحتضار بصور لم يثبتها الوحي. يكفي ما صرحت به الآيات: جاءت السكرة بالحق، وانقطع زمن الرجعة، وبقيت حقيقة العمل. أما كيفية خروج الروح وما يراه المحتضر في كل مرحلة فغيب يقف البيان فيه عند النص الصحيح.

وفي الأنعام يظهر التجرد عند العبور، وهو الوجه المقصود هنا قبل أن يعود معنى المجيء الفردي في موضع الحشر: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ﴾ [الأنعام: 94]. ما خُوِّل الإنسان من مال ومكانة وأسباب يبقى خلفه، ولا يعبر معه إلا ما صار عملًا. لا تنكر الآية قيمة النعمة في موضعها؛ تكشف حقيقتها عند الحد: كانت أمانة تصلح أن تتحول إلى زاد، ولم تكن جزءًا دائمًا من ذات صاحبها.

وحضور النهاية لا يصنع توترًا دائمًا؛ يمنع فقط خدعة الامتداد المفتوح. يخطط المؤمن لسنوات ويبني عملًا طويلًا، ولا يجعل صحة الخطة ضمانًا لطول الأجل. يبدأ بما يلزم الآن، ويستعمل الأمل في البناء لا في تأجيل التوبة.

لا تحتاج هذه العتبة إلى عشرات القرارات. يكفي أن تعرف العمل الذي ستطلب الرجعة من أجله لو أُغلق الباب الليلة، ثم تبدأه قبل أن تصير كلمة ﴿لَعَلِّي﴾ وصفًا لعجز لا يملك صاحبه تجاوزه.

﴿وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾

بعد كلمة ﴿كَلَّا﴾ يبدأ حد لا يعود منه الإنسان إلى زمن العمل: ﴿وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [المؤمنون: 100]. البرزخ حاجز ومرحلة بين الموت والبعث، وهو حياة غيبية أثبت الوحي أصلها وبعض أحوالها. فلا يمحو الموت الإنسان حتى يوم القيامة، ولا يبقى بعده في الدنيا كما كان، ولا يملك الأحياء أن يستكملوا تفاصيل حاله بقياس أو تجربة.

ويظهر في شأن آل فرعون فرق صريح بين ما قبل قيام الساعة وما بعدها: ﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾ [غافر: 46]. عرض قبل الساعة، ثم إدخال في العذاب الأشد عند قيامها. الآية تثبت بدء تعلق الميت بمآله قبل البعث العام، وتمنع اختزال ما بعد الموت في فراغ لا إحساس فيه ولا جزاء.

وهنا تتقدم السنة لتنشئ من المعنى ما لا يستقل العقل ولا التجربة بتفصيله. قال النبي صلى الله عليه وسلم: «إِنَّ الْعَبْدَ إِذَا وُضِعَ فِي قَبْرِهِ وَتَوَلَّى عَنْهُ أَصْحَابُهُ، وَإِنَّهُ لَيَسْمَعُ قَرْعَ نِعَالِهِمْ، أَتَاهُ مَلَكَانِ فَيُقْعِدَانِهِ،

فَيَقُولَانِ: مَا كُنْتَ تَقُولُ فِي هَذَا الرَّجُلِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ فَأَمَّا الْمُؤْمِنُ فَيَقُولُ: أَشْهَدُ أَنَّهُ عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ، فَيُقَالُ لَهُ: انْظُرْ إِلَى مَقْعَدِكَ مِنَ النَّارِ قَدْ أَبْدَلَكَ اللَّهُ بِهِ مَقْعَدًا مِنَ الْجَنَّةِ، فَيَرَاهُمَا جَمِيعًا» (صحيح البخاري، 1374؛ صحيح مسلم، 2870).

سؤال القبر متصل بما عاشه العبد من إيمان واتباع. يثبت الله المؤمن، فلا يكون جوابه عبارة حفظها اللسان ثم نقضتها السيرة. ويصبح تعظيم السنة والاقتداء بالنبي صلى الله عليه وسلم استعدادًا لذلك السؤال، وتغدو المعرفة به طاعةً ومحبةً وتسليمًا.

وقال صلى الله عليه وسلم: «إِنَّ أَحَدَكُمْ إِذَا مَاتَ عُرِضَ عَلَيْهِ مَقْعَدُهُ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ، إِنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ فَمِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ، وَإِنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ فَمِنْ أَهْلِ النَّارِ، يُقَالُ: هَذَا مَقْعَدُكَ حَتَّى يَبْعَثَكَ اللَّهُ إِلَيْهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ» (صحيح البخاري، 1379؛ صحيح مسلم، 2866). وفي عرض المقعد للمؤمن بشارة تسبق البعث، وفي قوله في الحديث الأول: «قَدْ أَبْدَلَكَ اللَّهُ بِهِ مَقْعَدًا مِنَ الْجَنَّةِ» يظهر الفضل قبل أن يظهر استحقاق العبد، الله هو الذي يثبت، وهو الذي يبدل، وهو الذي يفتح لعبده باب الرجاء في أول منازل الآخرة.

وتصل السنة هذا الغيب بتفاصيل السلوك اليومي؛ فقد مر النبي صلى الله عليه وسلم بقبرين، فذكر التفريط في الطهارة والمشي بالنميمة سببًا للعذاب (صحيح البخاري، 218؛ صحيح مسلم، 292). ما يستخف به الإنسان في عادته قد يعبر معه بأثره، ولذلك لا يبقى البرزخ فكرة بعيدة عن اللسان والطهارة وحقوق الناس.

ومع إثبات هذه الأخبار يجب أن يقف البيان عند حدها. لا نحدد كيفية تعلق الروح بالبدن، ولا نقيس زمن البرزخ بزمننا، ولا نجزم بما يراه الميت في كل لحظة، ولا نجمع صورًا متفرقة في مشهد واحد ثم ننسبه إلى الوحي. ما صح نؤمن به كما جاء، وما اختلف في ثبوته أو دلالته لا نبني عليه أصلًا ولا نجعله مادة للتخويف.

كما لا يجوز أن يتحول الإيمان بعذاب القبر إلى يأس يطغى على باب الرحمة. النصوص نفسها تعرض للمؤمن مقعده من الجنة، وتثبت له الجواب، وتفتح في الدنيا أبواب التوبة والعمل. والخوف الذي جاء به الوحي يدفع إلى إصلاح الطهارة واللسان والعقيدة والاتباع، لا إلى تخيل مصير معين للنفس أو للناس من غير علم.

وقد جعل النبي صلى الله عليه وسلم الاستعاذة من عذاب القبر عبادة متكررة في الصلاة، فكان يقول: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ، وَمِنْ عَذَابِ النَّارِ، وَمِنْ فِتْنَةِ الْمَحْيَا وَالْمَمَاتِ، وَمِنْ فِتْنَةِ الْمَسِيحِ الدَّجَّالِ» (صحيح البخاري، 1377؛ صحيح مسلم، 588). لم يترك الخبر في باب المعرفة؛ نقله إلى افتقار

يومي بين يدي الله. الاستعاذة اعتراف بأن الثبات والنجاة لا يكونان بقوة العبد وحدها، وأن العلم بالغيب يثمر دعاءً وخضوعًا وعملًا.

يدخل خبر البرزخ في اليوم من أبواب قريبة: لسان يصان، وطهارة تحفظ، وسنة تتبع، وصلاة يختمها العبد بالاستعاذة، وتوبة لا تؤجل. وتبقى الحكايات والمنامات والتفاصيل التي لم تثبت خارج هذا البناء؛ لأنها تشغل القلب بما لم يكلف وقد تحجب عنه هيبة الخبر الصحيح.

عند القبر يتولى الأصحاب، وتنقطع القدرة على تعديل السيرة، ويبقى ما ثبت في القلب وما جرى في العمل. لا يصحب الإنسان إلى تلك العتبة تفسيره لنفسه، بل حقيقته عند الله.

الرجوع الذي يمنح الحياة معناها

بثبوت الرجوع يزول معنى العبث، ولا يستوي المصلح والمفسد، ولا تنفرد نتائج الدنيا بالحكم. يمضي الكدح إلى الرب، ويغلق الموت زمن الاختيار، ويبدأ البرزخ تعلق الإنسان بمآله. لذلك يعيش المؤمن مسؤولًا لأن وقت العمل محدود، مطمئنًا لأن الملك الحق لا يهمل ما قدم ولا يترك القصة بلا حكم.

هذا اليقين يحرر من وهم التأجيل، ولا يجعل الإنسان أسير الموت. يبني ويصلح ويخطط داخل زمن الأمانة، يفرح بالخير من غير أن يسميه الفوز الأخير، ويتألم من الشر من غير أن يمنحه الكلمة الأخيرة، ويجعل كدحه كله ذاهبًا إلى ربه.

ثم تتسع العتبة من موت الفرد إلى يوم يتغير فيه نظام العالم ويخرج الخلق جميعًا من الأجداث. هناك تسمع الخليقة النفخة التي تجمعها تحت الملك الكامل: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ﴾.

المحور الثالث: وَنُفِخَ فِي الصُّورِ

يعيش الإنسان داخل عالم شديد الإقناع بثباته. السماء فوقه في موضعها، والأرض تحمله كل يوم، والشمس تطلع في موعدها، والجبال تضرب في العين معنى الرسوخ. يبني خططه على أن الإطار سيبقى، وأن ما يتغير هو الأشخاص والأعمار والأحوال، أما العالم نفسه فالإطار الذي تتعاقب فيه القصص.

يبدأ القرآن ذلك اليوم بانقلاب ما ظنه الإنسان إطارًا ثابتًا لحياته: تكور الشمس، وتنكدِر النجوم، وتسير الجبال، وتنشق السماء، وتبدل الأرض. فلا يبقى المألوف أصلًا يمنع أمر الله، ولا ما ملأ العين أكبر من أن يطويه.

مات الأفراد واحدًا بعد آخر، وبقيت السماء والأرض في أعين الأحياء. ثم يأتي اليوم الذي لا تعبر فيه نفس وحدها؛ ينتهي فيه النظام الذي حمل الجميع، ويخرج الخلق من الأجداث، ويجتمعون بلا استثناء، ويقفون في موطن لا يبقى فيه من ملك الدنيا إلا أثره، ولا من صورتها الاجتماعية إلا ما قدمه صاحبها.

والذي أخبر بانقلاب العالم هو الذي أمر بإصلاحه، ونهى عن الفساد فيه، وجعل عمارة الأرض أمانة. يعمل المؤمن داخل هذا الإطار من غير أن يعبده؛ يبني ولا يتوهم أن البناء خالد، ويستعمل الأسباب ولا يمنحها استقلالًا، ويعرف أن كل سلطان داخل في ملك الله، وأن العالم الذي يبدو اليوم محيطًا به سيصير يومًا جزءًا من مشهد الحكم عليه.

حِينَ يُطْوَى الْعَالَمُ الْمَأْلُوفُ

﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ۝ وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [الزمر: 68-69].

ينتقل المشهد من الصعق إلى القيام. لا يفصّل المقطع كيفية النفخ؛ يضع القلب أمام أثر الأمر. حياة العالم التي بدت ممتدة تنقطع، ثم الخلق الذين غابوا في الأرض يقومون ينظرون. وما سماه الناس نهاية لم يكن إلا انتقالًا من طور إلى طور تحت مشيئة الله.

والاستثناء في قوله: ﴿إِلَّا مَن شَاءَ اللَّهُ﴾ يعلّم المؤمن الوقوف عند حد الخبر. نؤمن بما أخبر الله، ولا نملأ الاستثناء بأسماء نجزم بها بلا دليل صحيح صريح. ضبط الغيب عبادة مثل الإيمان به؛ لأن الذي عرّفنا بالمشهد هو وحده الذي يعلم تفصيله، والصدق معه أن نقول حيث قال، ونسكت حيث سكت.

ثم تشرق الأرض بنور ربها، ويوضع الكتاب، ويجاء بالنبيين والشهداء، ويقضى بين الناس بالحق. ينتهي انقلاب العالم إلى قضاء لا يحجب فيه نفوذٌ بينةً، ولا يضيع عمل بين ازدحام الأحداث.

وتبني سورة التكوير الحركة نفسها من طرف آخر:

﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ ۝ وَإِذَا النُّجُومُ انكَدَرَتْ ۝ وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ ۝ وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ ۝ وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ ۝ وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ ۝ وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ ۝ وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ ۝ بِأَيِّ ذَنبٍ قُتِلَتْ ۝ وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ ۝ وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ ۝ وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ ۝ وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ ۝ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا أَحْضَرَتْ﴾ [التكوير: 1-14].

تتوالى الجمل حتى يظن السامع أن الغاية وصف ما يقع في الشمس والنجوم والجبال والبحار، ثم تأتي الخاتمة: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا أَحْضَرَتْ﴾. كل هذا الانقلاب يعيد الإنسان إلى عمله. لم تكن الشمس والسماء والجبال هي القضية الأخيرة؛ كانت القضية نفسًا عاشت تحتها، ثم حضرت ومعها ما قدمت.

ويظهر في السورة أن ما كان عظيمًا في ميزان الدنيا قد يسقط، وما كان مستضعفًا منسيًا يعود سؤالًا. العشار، وهي من أنفس أموال العرب، تعطل فلا يلتفت إليها أحد، والموءودة التي دفنت بغير ذنب تسأل. يتهاوى ميزان القيمة الذي صنعه الناس: مال عظيم لا ينفع صاحبه في ذلك الاضطراب، ونفس صغيرة ظن قاتلها أن التراب أغلق قضيتها، فإذا حقها مرفوع في يوم تنشر فيه الصحف.

فلا يغتر القلب بما يملأ العين الآن، فالظالم الذي يظن سلطانه راسخًا يرى القرآن الشمس نفسها لا تبقى على صورتها.

ويقول الله تعالى:

﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ ۝ وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً ۝ فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ۝ وَانشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ۝ وَالْمَلَكُ عَلَىٰ أَرْجَائِهَا وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ ۝ يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ﴾ [الحاقة: 13-18].

تدك الأرض وتوهى السماء، ثم ينتقل المقطع مباشرة إلى الغاية: ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ﴾. لم يكن انقلاب العالم مشهدًا قائمًا بنفسه؛ إنه مدخل إلى عرض الإنسان كما هو.

وفي هذا الموضع تتقدم السنة لتكشف من هو الملك حين تذهب ممالك الأرض. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «يَقْبِضُ اللَّهُ الْأَرْضَ، وَيَطْوِي السَّمَاوَاتِ بِيَمِينِهِ، ثُمَّ يَقُولُ: أَنَا الْمَلِكُ، أَيْنَ مُلُوكُ الْأَرْضِ؟» (صحيح البخاري، 4812؛ صحيح مسلم، 2787).

يطوي الله السماوات ويقبض الأرض، ثم يجيء السؤال الذي يسقط كل دعوى: «أَنَا الْمَلِكُ، أَيْنَ مُلُوكُ الْأَرْضِ؟». كان الملك له قبل زوال ممالكهم، وسيبقى له بعد أن تخلو المنصات وتخفت الأسماء. لم يخرج أحد منهم عن ملكه لحظة؛ غير أن الحجب سقطت، وبقي الملك الذي لم يزل له الملك.

من سمع قول الملك يومئذ: «أَنَا الْمَلِكُ» لم يهب قلبه اليوم لعبد يموت أو مؤسسة تزول. يحفظ للسلطان المشروع حقه وللنظام ما تقوم به مصالح الناس، من غير ذوبان أمام القوة أو بيع للحق؛ فكل نفوذ داخل في ملك الله، محكوم بأجل وحد.

يستعمل المؤمن الأرض والمال والسلطان في مواضعها، ويعرف قدرها؛ فلا يستعبد قلبه بما يعلم أن أمرًا واحدًا يطويه.

حين ترى عالمك ثابتًا، اذكر أنه ثابت بإقامة الله لا بذاته. الشمس والجبال والبحار ليست حدود القدرة؛ هي خلق ينتظر الأمر. وفي اليوم الذي تتغير فيه كل المعالم يبقى سؤال واحد أشد قربًا من كل هذا الاتساع: ماذا أحضرت النفس؟

فَإِذَا هُم مِّنَ الْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ

﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ الْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ۝ قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَن بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا هَٰذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ ۝ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ۝ فَالْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [يس: 51-54].

كانوا في الأرض أفرادًا متباعدين، في أزمنة وبلاد وقبور لا يحصيها البشر، فإذا الصيحة الواحدة تجمعهم في حركة واحدة: ﴿إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ﴾. لا يخرجون إلى فراغ، ولا إلى دورة أخرى من الحياة، بل إلى ربهم. واللفظ يملأ البعث بالجهة؛ الذي أنشأهم وأماتهم وحفظهم في البرزخ هو الذي يدعوهم الآن إلى موقف بين يديه.

تظهر المفاجأة في قولهم: ﴿مَن بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا﴾. ما كان خبرًا يجادل فيه الإنسان صار واقعًا قام داخله. ثم يجيء الجواب: ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ﴾. يسمي الله نفسه في قلب المشهد الرحمن. البعث الذي يخشاه المسيء هو نفسه وفاء وعد الرحمن، وصدق المرسلين، وفتح باب العدل والجزاء. لم يكن الإمهال نسيانًا، ولم تكن الرحمة إلغاءً للحساب؛ الرحمن هو الذي وعد، والرحمن هو الذي يقيم العدل.

وفي قلب مشهد البعث يأتي اسم الرحمن. الذي يبعث المؤمن هو ربه الذي رحمه قبل أن يعرف الرحمة، وأنزل عليه الوحي، وفتح له التوبة، وأمهله وستره وأعانه. يخاف العبد عمله ويرجو ربه، ويعلم أن الحكم بيد الرحمن الذي لا يظلم نفسًا شيئًا.

ثم تقطع الآيات وهم الكثرة والبعد: ﴿فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾. كلمة «جميع» تهدم كل احتمال للفوات. لا يضيع من دفن في بحر، ولا من احترق جسده، ولا من محا الزمن أثر قبره، ولا من لم يعرف الناس اسمه. كانوا غائبين عن بعضهم، ولم يغيبوا عن علم الله لحظة.

وفي سورة ق ينتقل القرآن من النفخ إلى مجيء كل نفس:

﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَٰلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ ۝ وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ ۝ لَّقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ [ق: 20-22].

يستطيع الإنسان أن يضع الغيب خلف طبقات من الانشغال، فيبقى مصدقًا به من غير أن يضغط على لحظته. فإذا كشف الغطاء صار البصر حديدًا. الحقيقة كانت قائمة، والحاجز هو الذي زال. وخطر الغفلة أنها لا تغير الواقع؛ تؤخر رؤية صاحبه حتى يأتي وقت لا تنفع فيه الرؤية كما كان ينفع الإيمان بالغيب.

يكفينا من كشف الغطاء معناه القرآني: انكشاف ما كان غيبًا، وحضور النفس مع سائق وشهيد، وحدّة إدراك لا تبقي للمكذب موضعًا يختبئ فيه. أما كيفية المشهد وتفاصيل إدراك الناس فتبقى عند حد الخبر.

ويحمي القرآن معنى البعث من أن يصير مجرد عودة جسدية. يقول بعد الخروج: ﴿فَالْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا﴾. الجسد يقوم لأن صاحبه سيواجه عمله، والخلق يحضرون لأن العدل سيقع. كل حديث عن الإعادة لا يصل إلى المسؤولية يبقى قبل غاية النص.

الخروج واحد، لكن القلوب تلقاه بما حملت. يراه المنكر اقتحامًا لطمأنينة بناها على النهاية، ويراه المؤمن تمام وعد: قيامًا لحق ضاع، ورحمة ادخرها الله، وعمل خفي لم يطلع عليه أحد، وذنب تاب منه صاحبه ورجا محوه، ودمعة حملها إلى ربه.

وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم في حديث الحشر: «إِنَّكُمْ مَحْشُورُونَ حُفَاةً عُرَاةً غُرْلًا»، ثم قرأ: ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾، وقال: «وَأَوَّلُ مَنْ يُكْسَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِبْرَاهِيمُ» (صحيح البخاري، 4625؛ صحيح مسلم، 2860).

تجمع السنة بين الوعد القرآني وصورة الإنسان الخارج من الدنيا بلا غلافه الاجتماعي. كما بدأ أول مرة يعود. لا يحمل ثوبًا صنع به مرتبته، ولا زينةً عرفه الناس بها، ولا علامةً اشترى بها تميزه. يعود خلقًا لله قبل كل وصف أضافته الحياة.

سمعت عائشة رضي الله عنها هذا الخبر فقالت: يا رسول الله، الرجال والنساء جميعًا ينظر بعضهم إلى بعض؟ فقال صلى الله عليه وسلم: «يَا عَائِشَةُ، الْأَمْرُ أَشَدُّ مِنْ أَنْ يَنْظُرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ» (صحيح البخاري، 6527؛ صحيح مسلم، 2859). الحديث لا يترك القارئ يصنع من العري مشهدًا دنيويًا؛ شدة الموقف تستولي على الوعي، فلا تقاس أحوال ذلك اليوم بعادات النفوس في هذه الحياة.

ويصحح الحديث قياس الغيب على مألوف الدنيا؛ فشدة الموقف تستولي على الوعي، ولا تقاس أحوال ذلك اليوم بعادات السوق والبيت.

قد تخفى القصة عن الناس، ويموت شهودها، وتدفن الوثائق، ثم يقوم صاحبها ويقوم من ظلمه ويقوم الحق الذي ظنه قد مات. البعث يعيد القضايا إلى موضع لا تضيع فيه.

حين ينام المرء مطمئنًا إلى أن ما فعله صار خلفه، يوقظه قوله تعالى: ﴿فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾. الماضي لا يبقى ماضيًا إذا حمله الإنسان إلى يوم يقوم فيه بين يدي ربه.

وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا

﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ۝ وَعُرِضُوا عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا﴾ [الكهف: 47-48].

تسير الجبال، وتبرز الأرض، ثم يجيء الفعل الذي لا يترك استثناءً: ﴿وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾. في الدنيا يعيش الإنسان داخل دوائر صغيرة؛ أسرة، وبلد، ومهنة، وجيل. قد يظن أن من خرج من دائرته خرج من القصة، وأن قومًا ماتوا قبل قرون لا صلة لهم بحاضره. الحشر يجمع التاريخ الإنساني كله في موطن واحد، ويكشف أن اختلاف الأزمنة لم يكن خروجًا من العبودية ولا من الموعد.

والأرض يومئذ بارزة. اختفت الجبال التي كانت تصنع الحواجز والمعالم، فلا وادٍ يحجب، ولا مرتفع يستر، ولا حدود يرسمها البشر لتقسم الملك. يتناسب انكشاف الأرض مع انكشاف أهلها؛ عالم مكشوف، وخلق مجموعون، وعرض على الرب صفًا.

قوله: ﴿وَعُرِضُوا عَلَىٰ رَبِّكَ﴾ يعيد الرهبة إلى أصلها. الناس لا يعرضون أمام قوة مجهولة ولا أمام نظام آلي؛ يعرضون على ربهم. الذي عرف سرهم، ورباهم بنعمه، وأرسل إليهم، وحذرهم، هو الذي يراهم صفًا. وإضافة الرب إلى النبي صلى الله عليه وسلم تقرّب خبر الجمع من قلبه وهو يتلقى وعيد المكذبين.

ثم يجيء التذكير: ﴿لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾. يعود الإنسان مجردًا من كل ما ظن أنه جزء لا ينفصل عنه. الإنسان هو الإنسان، والعمل باقٍ؛ أما ما أحاط به من متاع ورتبة وحماية فلا يصحبه إلا أثره طاعةً أو حقًا أو ظلمًا مكتوبًا.

ويقول سبحانه:

﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ۝ يَتَخَافَتُونَ بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا ۝ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا ۝ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا ۝ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ۝ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا ۝ يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُ وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾ [طه: 102-108].

أصوات ملأت الدنيا جدلًا وصخبًا تخشع للرحمن، فلا يسمع إلا الهمس. انتهى سلطان الجمهور والمنصة، وبقي داعٍ لا عوج له وأمر لا يرد.

وفي قوله: ﴿وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ﴾ اجتماع الجلال والرحمة؛ فالذي وسعت رحمته الخلق هو الذي تخشع له الأصوات. من عرف الرحمن أحبه ورجاه، وخشي أن يلقاه وقد قابل رحمته بالإعراض.

ويختصر الناس أعمارهم حين ينظرون من ذلك الموطن: عشرًا أو يومًا. الزمن الذي كان صاحبه يراه طويلًا بما يكفي لتأجيل الحق ينكمش عند الحشر. ما ملأ الوعي سنين يصير في الذاكرة لقطة قصيرة، ويبقى أثر ما فعل فيه.

ويجرد الحشر الناس من الامتيازات التي صنعتها المجتمعات. لا تحفظ لهم ألقابهم ولا أموالهم امتيازًا يخرجهم من أصل العبودية؛ الجميع خلق مدعوون، ولا يملك أحد الإفلات. ثم تظهر الفروق بما عند الله، من غير أن يحمل أحد حقًا ذاتيًا يخرجه من موقف العبودية.

ويصحح الحشر نظرة الإنسان إلى الناس: لا يحتقر ضعيفًا، ولا يذوب أمام صاحب جاه؛ فالجميع ذاهبون إلى صف واحد. يحفظ الحقوق والمقامات المشروعة، ولا يبيع دينه ليحفظ صورة زائلة.

ولا تخفف كثرة الموافقين مسؤولية صاحب الاختيار؛ فالحشر يجمع الجميع، ولا يحمل أحد عن فرد عمله.

ويحمي هذا المعنى المؤمن من عزلة اليأس. إن كان وحيدًا في حق، فموعد الجمع آت، وسيظهر أن الوحدة في مرحلة لم تكن خروجًا من القصة. وإن فقد عزيزًا، فهو لا يملك أن يجزم له بمصير، لكنه يؤمن أن الموت لم يمح وجوده، وأن الخلائق ستجمع بأمر الله. الرجاء المشروع لا يبنى على تفاصيل لم تثبت، بل على قدرة الله ووعده ورحمته.

وجوه كثيرة، وألقاب ومناصب وحواجز؛ ثم أرض بارزة، وصف لا يُغادر منه أحد، ورب واحد يعرض عليه الجميع. هناك تنكمش الصورة التي ملأت العين، وتبقى العبودية التي لم تغب لحظة.

لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ؟

بعد انقلاب العالم وبعث الناس وحشرهم، يظهر المعنى الذي كان حقًا في كل زمن ولم تكن الأبصار تراه كاملًا: الملك لله وحده. يقول سبحانه:

﴿يَوْمَ هُم بَارِزُونَ لَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ۝ الْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [غافر: 16-17].

الملك لله قبل ذلك اليوم وبعده. الذي يتغير هو سقوط الدعاوى، وعجز المخلوق الذي تصرف في جزء صغير بإذن الله عن أن ينسب إلى نفسه شيئًا. لذلك يجيء الجواب: ﴿لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾؛ واحد لا شريك له في الملك، قهار خضع له كل من ادعى القوة.

ويتصل كمال الملك بكمال العدل: ﴿الْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾. حين يكون الملك للواحد القهار، لا يملك ظالم حمايةً خارج حكمه، ولا يحتاج مظلوم إلى سند أقوى منه.

ويظهر أثر هذا الملك في علاقات المؤمن وأعماله.

يحب أهله، ويقوم بحقوقهم، وينفع الناس ما دام قادرًا، ولا يطلب رضا أحد بمعصية من له الملك كله.

فالقدرة على النصيحة والصدقة ورد المظلمة فرصة مؤقتة، والعمل بها اليوم أصدق من عاطفة لا تملك غدًا أن تقدم شيئًا.

وتقول سورة المطففين:

﴿يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [المطففين: 6].

قيامهم لرب العالمين يجمع المشهد كله. العالم الذي تغير عالمه، والناس الذين خرجوا خلقه، والجمع الذي لم يتخلف عنه أحد وقع بأمره، والوقوف له. تنتهي المشاهد إلى عبودية صريحة: قيام للرب.

وقال النبي صلى الله عليه وسلم: «تُدْنَى الشَّمْسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْخَلْقِ حَتَّى تَكُونَ مِنْهُمْ كَمِقْدَارِ مِيلٍ... فَيَكُونُ النَّاسُ عَلَى قَدْرِ أَعْمَالِهِمْ فِي الْعَرَقِ، فَمِنْهُمْ مَنْ يَكُونُ إِلَى كَعْبَيْهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَكُونُ إِلَى رُكْبَتَيْهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَكُونُ إِلَى حَقْوَيْهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يُلْجِمُهُ الْعَرَقُ إِلْجَامًا» (صحيح مسلم، 2864).

يربط الحديث شدة الموقف بالعمل نفسه. الأجساد واقفة تحت شمس دنت، والعرق يتفاوت بقدر ما قدم الإنسان. أخبره الوحي قبل أن يقوم، وأعطاه زمنًا يعمل فيه، وفتح له بابًا يلجأ إليه.

وحين تقرأ هذا الحديث لا تجعل الخوف يقطعك عن الرجاء. الذي سماهم في الآية «الناس» سمّى نفسه «رب العالمين». ورب العالمين أعلم بضعف عباده، وقد فتح لهم أبواب التوبة والاستعاذة والعمل. الخوف الصحيح يقول: إلى من ألجأ غير ربي؟ والرجاء الصحيح يقول: كيف أضيع بابًا فتحه رب العالمين قبل الوقوف؟

ومن أعمق آثار ظهور الملك أن يسقط الإعجاب بالنفس قبل أن يسقط يومئذ. الإنسان قد يظن أنه يملك علمه أو أثره أو جمهوره أو قدرته على الإصلاح، ثم ينسب النتائج إلى ذاته. الإيمان بالحشر يعلمه أن كل ما بين يديه تمليك مؤقت، وأن الله يستطيع أن ينزع السبب ويبقيه عاجزًا، وأن أجمل عمل قدمه لا يخرجه من العبودية ولا يستحق به على الله نجاةً مستقلة عن رحمته.

ويسقط مع ظهور الملك ذل القلب للمخلوق. يطلب الإنسان من الناس ما يقدرون عليه، ويحفظ الأنظمة والأسباب، ويشكر من أحسن؛ لكنه لا يراهم مصدرًا نهائيًا. يجري الله بعض الأمر على أيديهم، ويبقى الفتح منه، ومنعهم لا يخرج العبد من ملكه.

ويبلغ هذا المعنى ذروته حين يسأل الملك: أين ملوك الأرض؟ كل تاج يسقط، وكل منصة تخلو، وكل اسم كان يملأ الأخبار يصير واحدًا في الجمع. ويبقى للعبد ما صنع بملكه المؤقت: أعدل أم ظلم؟ أعان أم استعلى؟ نسب الفضل إلى الله أم بنى لنفسه عرشًا صغيرًا في قلبه؟

لا ينتظر المؤمن يوم ظهور الملك ليعرف مالكه. يسلم أمره اليوم، ويرد الحقوق اليوم، ويكسر كبرياءه اليوم، ويستعمل ما مُلّك في طاعة من له الملك. فإذا جاء اليوم الذي لا تملك فيه نفس لنفس شيئًا، لم يكن يسمع حقيقةً جديدة؛ كان ينتقل من إيمان الغيب إلى شهود ما عاش عليه.

العَالَمُ الَّذِي يَقُودُكَ إِلَىٰ رَبِّكَ

ليس انقلاب الكون غاية المشهد؛ إنه ينزع عن العالم دعوى الثبات، ويرد الإنسان إلى ربه حاملًا ما قدم.

وفي الحشر تذهب الصور التي رفع الناس بها بعضهم وخفضوا بعضًا. لا يبقى لقب يحجب العبودية، ولا كثرة تحمل عمل صاحبها.

ثم يظهر الملك للواحد القهار، ويقوم الناس لرب العالمين. هناك يسقط السؤال عن موضع الإنسان بين الخلق، ويقوم السؤال الأصدق: إلى من مضيت بما مُلِّكت؟

ومن هذا الجمع المكشوف يدخل الخطاب إلى ما أخفاه كل فرد: سريرته وكتابه وشهوده. ﴿يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ﴾.

المحور الرابع: يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ

حين اجتمع الخلق، وسقطت الألقاب، وظهر الملك للواحد القهار، لم يبق السؤال: أين يقف الإنسان بين الناس؟ صار السؤال: ماذا يحمل الإنسان في نفسه، وماذا كتب بعمله، وماذا ستقول عنه جوارحه، وبماذا يظن أنه يحتمي حين لا يملك أحد لأحد شيئًا؟

يستطيع المرء أن يرتب صورته أمام الناس: يظهر ما يحسنها، ويؤخر ما يحرجه، ويشرح فعله بعبارة ألطف من حقيقته، حتى يألف الرواية التي صنعها لنفسه. وقد يراه الناس في عبادة أو بذل أو شجاعة، ولا يرون الدافع الذي طلب رضاهم؛ وقد يخفى الذنب عنهم حتى يظن صاحبه أن غياب العيون أمان.

يأتي اليوم الآخر فيسقط الفرق بين الصورة والحقيقة. الدافع الباطن يمتحن، والعمل المتفرق يصير كتابًا، والأدوات التي استعملها الإنسان تنطق، والعلاقات التي احتمى بها تعجز عن حمل شيء من حسابه. لا يحتاج الحق يومئذ إلى مهارة في عرضه؛ الحق نفسه يظهر.

والنجاة تبدأ قبل ذلك اليوم: قلب يطلب وجه الله، وخلوة تستحيي من علمه، وتوبة ترجع قبل أن يصير المستور مشهودًا.

السِّرُّ الَّذِي يَصِيرُ عَلَانِيَةً

يقول الله تعالى: ﴿إِنَّهُ عَلَىٰ رَجْعِهِ لَقَادِرٌ ۝ يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ ۝ فَمَا لَهُ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ﴾ [الطارق: 8–10]. تبدأ الآيات بالقدرة على الرجوع، ثم لا تترك البعث عند صورة الأجساد القائمة؛ تنتقل إلى ما كان مطويًا في الداخل. السرائر لا تبقى سرائر. ما استقر في القلب، وما حرك العمل، وما ستره اللسان بحسن البيان، يدخل في البلاء والانكشاف.

ويقول سبحانه: ﴿أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ ۝ وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ ۝ إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ﴾ [العاديات: 9–11]. بعثرة القبور يقابلها تحصيل الصدور. يخرج ما في الأرض، ويتميز ما في القلب، ويظهر أن الرب كان خبيرًا بهم قبل أن يعلموا هم حقيقة ما استقر فيهم.

ليس علم الله بالسر معلومة تضاف إلى المشهد بعد اكتماله؛ هو الذي يجعل الإخلاص ممكنًا. من علم أن الله يرى الدافع لم يحتج إلى أن يثبت نفسه لكل عين، ولم يضره أن يخفى موضع صدقه عن الناس.

يقول الله تعالى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الملك: 14]. الذي خلق القلب يعلم تقلبه، ويعلم الفرق بين خاطر يعرض فيدفعه العبد، وقصد يستقر فيطلب به وجوه الخلق.

وتكشف السنة أن صورة العمل قد تكون من أعظم الصور، ثم ينقلب الحكم حين ينكشف المقصود. ذكر النبي صلى الله عليه وسلم أول من يُقضى عليهم يوم القيامة: رجلًا قاتل حتى قُتل، فيقول الله له: «كَذَبْتَ، وَلَكِنَّكَ قَاتَلْتَ لِأَنْ يُقَالَ جَرِيءٌ، فَقَدْ قِيلَ»، ورجلًا تعلم العلم وعلمه وقرأ القرآن ليقال عالم وقارئ، ورجلًا أنفق ليقال جواد، فأخذ كل واحد منهم الذكر الذي قصده في الدنيا، ولم يطلب بعمله وجه الله (صحيح مسلم، 1905).

بذل النفس، وتعليم العلم وقراءة القرآن، وبذل المال، أعمال تهتز لها القلوب. غير أن عظمتها الظاهرة لم تحملها إلى القبول حين انحرفت الجهة. انتهى أجر الصورة عند من صُنعت الصورة لأعينهم.

والعمل الظاهر قد يكون خالصًا، وقد تكون مصلحة ظهوره أعظم من إخفائه، وقد يأتي الثناء من غير طلب فيكون عاجل بشرى المؤمن. موطن الخوف أن يصير نظر الناس هو الذي ينشئ العمل أو يوجهه أو يحدد استمراره؛ ينشط إذا رُئي، ويذبل إذا غابت العيون، ويحزن لفوات الذكر أكثر من حزنه لفوات القبول.

الإخلاص يحتاج مجاهدة متجددة. قد يبدأ العمل لله ثم يزاحمه حب الثناء فيرده العبد ويستغفر، وقد يظهر العمل لحاجة الناس إليه ويبقى القلب يطلب وجه الله. وجمع القرآن صحة الظاهر والباطن في قوله: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [الكهف: 110]: عمل صالح، وقصد خالص، ورجاء لقاء الرب.

حين يعرف القلب أن السرائر ستبتلى، يتغير موضع العناية. لا يكتفي بسؤال: هل فعلت؟ يسأل: لمن فعلت؟ ولا يكتفي بأن تبدو العبادة صحيحة، يطلب أن تصل إلى الله بقلب صادق. وإذا وجد في نفسه حب الذكر لم يترك العمل هربًا من الناس، بل جاهد الدافع وأكمل الطاعة لله.

ومن رحمة الله أن زمن إصلاح السريرة هو الآن. يتوب العبد من عمل طلب به الناس، ويجدد النية في عمل قائم، ويجعل بينه وبين الله طاعة لا يعلمها الخلق. والخبيئة الصالحة تربي القلب على الأنس بعلم الله حين يغيب علم الناس.

وفي ذلك اليوم لا تنجو الصورة، لكن التوبة الصادقة تنفع قبل ذلك اليوم. الله الذي يعلم الخلل هو الذي دعا إلى الرجوع، والذي يرى الرياء يرى أيضًا مجاهدة العبد له، ودمعته حين يخاف رد عمله، وصدق افتقاره إلى القبول.

يا رب، اجعل ما ظهر من أعمالنا صالحًا، وما بطن خالصًا، ولا تجعل نصيبنا من الطاعة كلمة قيلت فينا ثم انقضت.

اقْرَأْ كِتَابَكَ

يقول الله تعالى: ﴿وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا ۝ اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ [الإسراء: 13-14]. عمله وما لزمه منه من خير أو شر لا ينفصل عنه بانقضاء الزمن، ثم يلقاه كتابًا منشورًا، ويُطلب منه أن يقرأه بنفسه.

ينسى الإنسان كثيرًا مما صنع. تبقى في ذاكرته المواقف الكبيرة، وتذوب الكلمات العابرة والنظرات والتأجيلات والمجاملات التي أضاعت حقًا، كما ينسى أبواب خير فتحها ثم مضى. أما الكتاب فيحفظ ما كان، لا السيرة التي أحب صاحبها أن يتذكرها.

ويقول الله تعالى: ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: 49]. يجيء الخوف من دقة الإحصاء، ثم تختم الآية بنفي الظلم. ودقة الإحصاء لا تناقض الرحمة؛ فالكتاب سجل عدل لا تضيع فيه حسنة، ولا تنسب إلى الإنسان سيئة لم يعملها.

قوله: ﴿وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا﴾ ينقل العمل من الماضي إلى الحضور. كلمة قالها المرء ثم تجاوزها قد تكون قد بقيت في قلب آخر أعوامًا. حق أخره حتى مات صاحبه لم ينته بموت المطالب. صدقة نسيها صاحبها بقيت عند الله. تسبيحة خرجت من قلب صادق في ساعة لم يرها أحد لم يبتلعها الصمت.

لهذا لا يحتقر المؤمن الصغير المتكرر. الكتاب يتكون من أيام عادية ظن صاحبها أنه لا شيء يُكتب فيها: عين غضت، ووعد وفى به، وصلاة أداها مع ثقل النفس، أو ذنب عاد إليه حتى صار طريقًا مألوفًا. التراكم يصنع من الاختيار العابر سيرة.

ومراقبة الكتاب تقود إلى العمل، لا إلى شلل الخوف. لم يكلَّف الإنسان أن يستعيد كل ما نسي، وإنما أن يتقي الله ويتوب ويصلح ما ظهر له: يرد حقًا، ويستغفر من ذنب، ويستدرك ما يستطيع.

وتدخل السنة إلى هذا الموضع بباب من الرحمة لا يستقل العقل بتصويره. قال النبي صلى الله عليه وسلم: «إِنَّ اللَّهَ يُدْنِي الْمُؤْمِنَ فَيَضَعُ عَلَيْهِ كَنَفَهُ، وَيَسْتُرُهُ، فَيَقُولُ: أَتَعْرِفُ ذَنْبَ كَذَا؟ أَتَعْرِفُ ذَنْبَ كَذَا؟ فَيَقُولُ: نَعَمْ أَيْ رَبِّ... حَتَّى إِذَا قَرَّرَهُ بِذُنُوبِهِ وَرَأَى فِي نَفْسِهِ أَنَّهُ هَلَكَ، قَالَ: سَتَرْتُهَا عَلَيْكَ فِي الدُّنْيَا، وَأَنَا أَغْفِرُهَا لَكَ الْيَوْمَ» (صحيح البخاري، 2441؛ صحيح مسلم، 2768).

يقول المؤمن: نعم أي رب. ثم يسمع، في أشد مواضع الانكشاف: سترتها عليك في الدنيا، وأنا أغفرها لك اليوم. سترٌ سبق، ومغفرةٌ حضرت، وفضلٌ لم يصنعه العبد لنفسه.

هذه النجوى تحفظ القلب بين الهيبة والرجاء: لا يتكل على الستر فيقيم على الذنب، ولا ييأس من ذنب تاب منه؛ فالرب الذي يحاسب هو الذي يستر ويغفر.

من عرف أنه سيقرأ كتابه هان عليه أن يخسر شيئًا من صورته لينقذ حقيقته عند الله. يعتذر عن خطأ، أو يرد مالًا فيُعرف تقصيره، أو يتراجع عن قول مشهور. انكشاف الخطأ اليوم أهون من سطر يقرؤه غدًا وكان يستطيع أن يتوب منه ويستدرك حق صاحبه.

سيرة البشر لا تخلو من السقوط؛ لكن الكتاب قد يحمل سقوطًا تبعته توبة، وظلمًا تبعه رد، وغفلة أيقظها ذكر، ونقصًا قابله افتقار. وما دامت صفحة الدنيا مفتوحة، يستطيع العبد أن يغير ما سيأتي بعدها.

كل يوم يكتب سطرًا، وإن بدا في أعين الناس أنه يوم لم يحدث فيه شيء.

شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ

يقول الله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ۝ حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۝ وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ۝ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ۝ وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [فصلت: 19-23].

لم يأت الشهود من مكان بعيد. السمع الذي تلقى، والبصر الذي نظر، والجلد الذي باشر، تتحول كلها إلى شهادة. كانت الجوارح أدوات يظن صاحبها أنها مملوكة له يتصرف بها ثم يسكتها؛ فإذا بها مخلوقة لله، ينطقها الذي أنطق كل شيء.

وفي سؤالهم لجلودهم: ﴿لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا﴾ دهشة من انقلاب موضع الأمان. الجسد الذي احتمى به الإنسان من أعين الخلق لم يكن حجابًا عن الخالق. أغلق الباب، وخفض الصوت، ومحا الأثر الذي يستطيع البشر الوصول إليه، وبقي علم الله لا يحجبه جدار، وبقيت الجوارح تحمل حقيقة ما فعلت.

ثم تكشف الآيات أصل الانحراف: ﴿وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾. قد لا يقول العاصي هذا بلسانه، لكنه يعامل الخلوة كأنها فراغ من العلم. يشتد حياؤه إذا دخل إنسان، ويضعف إذا لم يبق إلا نظر الله. ذلك الظن العملي بالله يرديه قبل أن تنطق الجوارح.

ويقول سبحانه: ﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [يس: 65]. ينتهي سلطان اللسان الذي اعتاد الدفاع والتفسير، ويتقدم الفعل نفسه ليتكلم. اليد لا تحسن المرافعة، والرجل لا تعيد ترتيب القصة؛ تشهد بما كان الإنسان يكسب.

وقال النبي صلى الله عليه وسلم: «يَقُولُ الْعَبْدُ: يَا رَبِّ، أَلَمْ تُجِرْنِي مِنَ الظُّلْمِ؟ فَيَقُولُ: بَلَى. فَيَقُولُ: فَإِنِّي لَا أُجِيزُ عَلَى نَفْسِي إِلَّا شَاهِدًا مِنِّي... فَيُخْتَمُ عَلَى فِيهِ، فَيُقَالُ لِأَرْكَانِهِ: انْطِقِي، فَتَنْطِقُ بِأَعْمَالِهِ» (صحيح مسلم، 2969).

يطلب شاهدًا من نفسه، فيأتيه الشاهد من نفسه. لا يظلمه الله، ولا يحتاج الحكم إلى تهمة مجهولة؛ أركانه التي حملت الفعل تنطق به. ثم يعود له الكلام، فيخاصم جوارحه التي كان عنها يناضل. وما أقسى أن يكتشف الإنسان أن دفاعه الطويل لم يكن عن براءته، بل عن الأعضاء التي ستروي الحقيقة.

وتدخل الأرض في عالم الشهادة بإذن ربها: ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ۝ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا﴾ [الزلزلة: 4-5]. تخبر بما شاء الله من أخبارها، ويزول وهم المكان الصامت الذي لا يحمل من فعل الإنسان أثرًا.

وقد يجعل الله في خلقه من يشهد للعبد. قال النبي صلى الله عليه وسلم في المؤذن: «لَا يَسْمَعُ مَدَى صَوْتِ الْمُؤَذِّنِ جِنٌّ وَلَا إِنْسٌ وَلَا شَيْءٌ إِلَّا شَهِدَ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ» (صحيح البخاري، 609). يمتد الصوت إلى من لا يعرفه صاحبه، ولا يخفى أثره عن ربه.

ويقول الله تعالى: ﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ [الإسراء: 36]. الجوارح نعم وأمانات، ويمكن أن تكون ميادين شهادة للعبد: عين غضها عن حرام، وأذن صانها عن باطل، ويد دفعت أذى، ورجل مشت إلى طاعة.

وحراسة الجوارح تبدأ من معرفة المنعم؛ فكل جارحة باب معرفة وعبادة، وأمانة ستعود إلى خالقها.

وقد تحجب الشاشة والاسم المستعار أثر الفعل عن بشر، ولا تحجبه عمن خلق البصر واليد والقلب. الخلوة لم تخرج قط من ملك الله ولا من علمه.

الحياء من الله أرفع من مراقبة مذعورة؛ هو حياء عبد من رب أنعم عليه ويراه، فيكره أن يستعمل نعمته في معصيته. وحين يضعف لا يهرب من الله، بل يعود إليه؛ فالذي رأى الذنب يرى التوبة.

علّم جوارحك من الآن ما تحب أن تقوله يوم تنطق.

يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا

يقول الله تعالى: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ ۝ ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ ۝ يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ﴾ [الانفطار: 17-19]. يتكرر السؤال تعظيمًا لليوم، ثم يأتي الجواب من جهة العجز: لا تملك نفس لنفس شيئًا، والأمر لله. ويجمع القرآن سقوط الإغناء وبقاء الرجاء في قوله: ﴿يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ۝ إِلَّا مَن رَّحِمَ اللَّهُ إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ [الدخان: 41-42].

تحيط بالإنسان أسباب من النفع والحماية: أهل وصحبة ومال وجماعة. وتبقى نعمًا وحقوقًا وأسبابًا مأمورًا بها ما لم تتحول في القلب إلى ضمانة يتكئ عليها في مواجهة الله؛ عندها يفسد موضعها ويضيع حدها.

ويصور القرآن أقرب العلاقات ساعة انقطاع قدرتها: ﴿فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاخَّةُ ۝ يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ۝ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ ۝ وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ ۝ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ [عبس: 33-37]. لا تهدم الآيات حرمة الأسرة في الدنيا؛ تكشف حدود قدرتها في الحساب. الذين كان الإنسان يحمل همهم ويطلب قربهم يستولي على كل واحد منهم شأنه.

وفي سورة المعارج يبلغ طلب الفدية غايته: ﴿وَلَا يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا ۝ يُبَصَّرُونَهُمْ يَوَدُّ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ ۝ وَصَاحِبَتِهِ وَأَخِيهِ ۝ وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُؤْوِيهِ ۝ وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ ۝ كَلَّا﴾ [المعارج: 10-15]. ما كان يحتمي به يصير في شدة الخوف شيئًا يتمنى بذله، ثم تأتي ﴿كَلَّا﴾ فتسقط وهم الفدية كلها.

ويأتي البيان النبوي قاطعًا للاغترار بأشرف نسب. لما نزل قول الله تعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ، اشْتَرُوا أَنْفُسَكُمْ، لَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا...

يَا فَاطِمَةُ بِنْتَ مُحَمَّدٍ، سَلِينِي مَا شِئْتِ مِنْ مَالِي، لَا أُغْنِي عَنْكِ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا» (صحيح البخاري، 2753؛ صحيح مسلم، 206).

قالها لمن كان أحب الناس إليه وأقربهم منه. يستطيع أن يعطي من ماله في الدنيا، ولا يملك لهم أمام الله شيئًا استقلالًا. قربهم منه شرف عظيم، لكنه لا يلغي عبوديتهم، ولا يحول النسب إلى بديل عن الإيمان والعمل ورحمة الله.

وهذا يهدم الغرور بالانتساب الديني. البيت الصالح والعالم والجماعة نعم حين تحمل صاحبها على الاقتداء، وتتحول إلى حجاب حين تمنحه شعورًا بالأمان وهو مقيم على التفريط.

وفي المقابل لا يدعو استقلال المسؤولية إلى الفردية القاسية. ما دام اليوم هو زمن القدرة، فمحبة الأهل تظهر في إعانتهم على الخير، وفي إنقاذهم من الظلم والمعصية، وفي نصح لا يتعالى، ودعاء لا ينقطع. من علم أنه لن يحمل عنهم الحساب لم يتركهم لأنفسهم الآن؛ أحب لهم النجاة قبل أن ينشغل كل امرئ بشأنه.

ويتحرر القرار من ضغط الجماعة؛ فكثرة الموافقين لا تحمل ذنبًا عن صاحب الاختيار، ورضا الأسرة لا يحول الحرام حلالًا. يستشير الإنسان ويطيع في المعروف، ثم يعلم أن كتابه باسمه، وأن جوارحه ستشهد عليه.

وسقوط الفدية يعيد وزن المال. يستطيع اليوم أن يرد مظلمة، ويطعم محتاجًا، ويعين قريبًا، ويصير طاعة باقية؛ فإذا أُغلق زمن العمل لم يشتر به صاحبه سطرًا جديدًا في كتابه.

ويبقى الرجاء حيث وضعته الآية: ﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ اللَّهُ﴾. لا في نسب يحمله، ولا في صورة صنعها، ولا في مال يفتدي به؛ بل في العزيز الرحيم، مع إيمان صادق وتوبة وعمل يقدمه العبد مفتقرًا إلى فضله.

في ذلك اليوم تتساقط الأسماء التي اتكأ عليها الناس، ويبقى صدق العبودية. لا ينفع أن يسبق اسم صالح اسمك، ما لم يصدق فيك ما دعا إليه ذلك الصالح.

الحَقِيقَةُ الَّتِي لَا تَحْتَاجُ إِلَى دِفَاع

يقف الإنسان أمام الله كما هو، لا كما قدم نفسه للناس ولا كما أحب أن يروي قصته لنفسه. تصير السريرة والقول والعمل حاضرةً، فلا يبقى للدفاع الذي عاش به موضع.

ومع ذلك لا يغلق القرآن القارئ داخل ماضٍ كتبه. قبل يوم الانكشاف يستطيع أن يصلح ما بقي. يقول سبحانه: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ

غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [الفرقان: 70]. التوبة النصوح حقيقة جديدة يعلمها الله ويكتب أثرها، ومن لوازمها رد حقوق العباد أو التحلل منها عند القدرة.

خبر الانكشاف يدعو إلى الصدق الآن: يعترف العبد قبل أن يقرأ كتابه، ويرد الحق قبل أن تسقط الفدية، ويصلح السر قبل ابتلائه. وما يصدق فيه اليوم يغنيه عن دفاع لا ينفع غدًا.

وبعد انكشاف الإنسان يأتي حكم رب الإنسان: كيف يزن الله ما ظهر، وكيف يجتمع الحساب الدقيق مع العدل التام والرحمة الواسعة وحقوق الخلق؟ ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ [الأنبياء: 47].

المحور الخامس: وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ

قد يظهر العمل في الدنيا على غير قدره: إحسان خفي لا يعرفه أحد، واسم رفعته الدعاية فوق ما حمله الصدق، وعابد خرج من طاعته وفي قلبه شيء من الاستغناء بها. ثم يأتي يوم يوضع فيه كل عمل موضعه، وتسقط الصورة، ويقف العبد مفتقراً إلى رحمة ربه.

تختلط موازين البشر بما يخفى عليهم وبما تميل إليه نفوسهم. قد تقوى العبارة ويضعف العمل، وقد يصغر الفعل في أعين الناس وهو عند الله ثقيل، أو يملأ أعينهم ولا يقوم له وزن. ويغتر المطيع بما صنع، كما يغتر المقصر بسعة الرحمة وهو مقيم على التفريط.

ويأتي الوحي بميزان لا تفسده غفلة، ولا تحرفه محاباة، ولا يعجز عن إحضار مثقال ذرة. فيه تعرف النفس أن الرحمة ليست ثغرة في الحكم، وأن الطاعة لا تستقل بصاحبها عن فضل من هداه إليها وقبلها، وأن الحقوق تدخل الحساب كما تدخل فيه الشعائر.

عدل الله يضع العمل كله في موضعه: حسنة لا تضيع، وسيئة لا تزاد، ومظلمة لا تحجبها عبادة أخرى، وشفاعة لا تخرج عن إذنه، وطاعة تبقى سبباً لا ثمناً مستقلاً. ثم يخني القلب افتقاراً؛ فما من توفيق ولا قبول ولا نجاة إلا بفضل الله.

فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا

يقول الله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ ۝ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ۝ وَيَنْقَلِبُ إِلَىٰ أَهْلِهِ مَسْرُورًا﴾ [الانشقاق: 7-9]. تبدأ الآيات بالكتاب الذي صار حاضرًا، ثم تنتقل إلى طريقة الحساب، وتنتهي بصورة لا تشبه فزع الموقف: عبد يرجع مسرورًا. بين الكتاب والسرور حساب يسير منحه الله له.

الحساب اليسير واقع بعد إحصاء العمل وقيام الشهود؛ يعرّف الله المؤمن بعمله ثم يتجاوز عنه بفضله، فلا يُناقش مناقشة تستوفي المؤاخذة عن كل تفصيل. وجاء البيان النبوي ليحرر هذا اليسر من الإجمال: إنه العرض الذي يعقبه العفو.

قالت عائشة رضي الله عنها للنبي صلى الله عليه وسلم عن قوله تعالى: ﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾، فقال: «لَيْسَ ذَاكِ الْحِسَابُ، إِنَّمَا ذَاكِ الْعَرْضُ، مَنْ نُوقِشَ الْحِسَابَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عُذِّبَ» (صحيح مسلم، 2876).

العرض يواجه العبد بعمله فيقر به، ثم يكون التجاوز والعفو. وهذه هي خصوصية الحساب اليسير: نوع الحساب الذي ينتهي بالستر، لا بيان منزلة العمل سبباً للنجاة؛ فذلك له موضع آخر.

وموطن الخوف هنا هو المناقشة: أن يُستوفى السؤال عن قول عرف صاحبه وجهه ثم مال عنه، أو حق أخره، أو عذر هدّأ به ضميره. ما يقبل في محكمة النفس لا يصير حقيقةً يوم العرض.

وموطن الرجاء أن الذي أحصى العمل هو الذي وعد بعض عباده بهذا العرض الكريم. لا يتكئ المؤمن على جهل بذنبه، وإنما يرجو ستر ربه وعفوه وهو صادق في الرجوع.

فلا تجعل محاسبة النفس مناقشةً لا تنتهي؛ أصلح ما ظهر، وتب مما عرفت، ورد الحقوق، ثم سل الله أن يعرض عليك عملك عرضًا يفضي إلى العفو.

ثم تقول الآيات: ﴿وَيَنْقَلِبُ إِلَىٰ أَهْلِهِ مَسْرُورًا﴾. بعد العرض سرور، وبعد وحشة الحساب انقلاب إلى الأهل؛ وهذه هي الصورة التي يفتحها الحساب اليسير.

وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ

يقول الله تعالى: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ﴾ [الأنبياء: 47]. الموازين قسط، والنتيجة نفي الظلم، والدقة تبلغ حبة الخردل. لا تحتاج العدالة يومئذ إلى شاهد يذكّر الله بشيء؛ ﴿وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ﴾.

الميزان حق من الغيب، فلا يحوله المؤمن إلى صورة رمزية عن الإنصاف، ولا يملأ كيفيته بخيال. تكفينا النصوص التي تثبت الوزن وتكشف أثره: ما يثقل وما يخف، وذرة ترى، وحسنة تضاعف. وما سكت عنه الوحي في الكيفية نقف فيه حيث وقف الخبر.

وجاءت السنة بوزن العمل، وبوزن الصحائف في حديث البطاقة (سنن الترمذي، 2639؛ وقال الترمذي: حسن غريب، وصححه جماعة من أهل العلم). فنثبت ما أثبتته النصوص، ونعلم أن نفي الوزن في قوله تعالى: ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا﴾ نفيٌ للقدر والاعتبار عند الله، لا نفيٌ لما ثبت من وزن الأعمال والصحائف؛ ولا نتكلف كيفية الوزن ولا نحصر الغيب فيما لم يحصره الوحي.

وتأتي سورة الزلزلة بأقصر طريق من العمل إلى رؤيته: ﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ ۝ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ [الزلزلة: 6-8]. لم تقل الآيات إن الذرة تختفي داخل المجموع، يراها صاحبها. الصغير الذي لم يلفت نظره كان له وزن وحضور.

ويقول سبحانه: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: 40]. اجتمع في الآية عدل لا ينقص، وفضل يضاعف، وعطاء من لدنه. فلا تُزاد سيئة على صاحبها، وتفتح الحسنة بفضل الله بابًا يتجاوز مقدارها الأول.

من يعلم أن مثقال الذرة سيحضره ينظر إلى يومه العادي بعين أخرى. كلمة لطف خففت ألم قلب، ونظرة حبسها صاحبها عن الحرام، وأمانة أتمها من غير رقابة؛ لم تصنع هذه الأعمال خبرًا، لكنها لم تضع عند الله.

والشر الصغير لا يصير مباحًا بكثرة وقوعه. تعليق يهين إنسانًا، أو دقيقة تزوير، أو معلومة أخفاها صاحبها ليضلل غيره؛ قد تمر كأنها لا شيء، ثم تأتي بها الموازين. الذرة تمنع القلب من أن يبني سيرته على الاستهانة المتكررة.

وقال النبي صلى الله عليه وسلم: «كَلِمَتَانِ خَفِيفَتَانِ عَلَى اللِّسَانِ، ثَقِيلَتَانِ فِي الْمِيزَانِ، حَبِيبَتَانِ إِلَى الرَّحْمَنِ: سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ، سُبْحَانَ اللَّهِ الْعَظِيمِ» (صحيح البخاري، 6406؛ صحيح مسلم، 2694).

خفيفتان على اللسان، ثقيلتان في الميزان، حبيبتان إلى الرحمن. يجمع الحديث سهولة العمل وقوة أثره ومحبة الله له. ليست العبرة دائمًا بمقدار التعب الذي يراه الناس؛ قد يفتح الله لعبارة قصيرة من تعظيمه وزنًا عظيمًا، لأنها خرجت من قلب عرفه وأحبه ونزهه.

ويقول الله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ ۝ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ ۝ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ ۝ فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ﴾ [القارعة: 6-9]. الحياة التي كان الإنسان يطلب رضاها هنا تُحسم هناك بثقل الميزان. فلا تسأل عن حجم العمل في أعين الخلق وحده؛ اسأل ما الذي جعله خالصًا وصوابًا وثقيلًا عند الله.

الموازين تحرر العبد من عبادة النتائج السريعة. قد يفعل خيرًا ولا يرى أثره، أو يترك حرامًا ويدفع ثمن تركه، أو يؤدي واجبًا ثم ينسب النجاح إلى غيره. ميزان الناس لم ينصفه في المرحلة، لكن الحكم لم ينته. والذي يوقن بأن حبة الخردل تأتي، يستطيع أن يواصل الخير دون أن يتغذى دائمًا من التصفيق.

لا تحتقر معروفًا لأنك لم تستطع أكبر منه، ولا تطمئن إلى ذنب لأنك رأيته صغيرًا. بين الذرتين تبنى السيرة، وبالمداومة تتحول الأعمال الخفية إلى ثقل. كل يوم يمنحك الله فرصة أن تضع في ميزانك ما يحب، ثم تبقى تسأله القبول لأن الوزن له والحكم له والفضل منه.

الْمُفْلِسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ

لو كان الحساب بين العبد وعمله فقط، لبقيت حقوق كثيرة مبعثرة بين الناس. هذا شتم، وذاك قذف، وآخر أخذ مالًا، ورابع ضرب أو سفك دمًا. قد يتوب الإنسان من شعوره بالذنب، ثم ينسى أن في الجهة الأخرى قلبًا ومالًا وكرامة وجسدًا حملت أثر فعله. فجاءت السنة لتكشف أن الحقوق تدخل الحساب بأعيانها.

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أَتَدْرُونَ مَا الْمُفْلِسُ؟» قالوا: المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع. فقال: «إِنَّ الْمُفْلِسَ مِنْ أُمَّتِي يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِصَلَاةٍ وَصِيَامٍ وَزَكَاةٍ، وَيَأْتِي قَدْ شَتَمَ هَذَا، وَقَذَفَ هَذَا، وَأَكَلَ مَالَ هَذَا، وَسَفَكَ دَمَ هَذَا، وَضَرَبَ هَذَا، فَيُعْطَى هَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، وَهَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، فَإِنْ فَنِيَتْ حَسَنَاتُهُ قَبْلَ أَنْ يُقْضَى مَا عَلَيْهِ أُخِذَ مِنْ خَطَايَاهُمْ فَطُرِحَتْ عَلَيْهِ، ثُمَّ طُرِحَ فِي النَّارِ» (صحيح مسلم، 2581).

حضرت الصلاة والصيام والزكاة، ثم انتقلت الحسنات إلى من ظُلموا. لم تصنع العبادة حصنًا لصاحبها من حقوق الناس؛ فالصفحات التي فصل بينها في حياته تجتمع في حساب واحد: محرابه ولسانه، وصيامه ومال غيره.

هذا الحديث من أشد النصوص اتصالًا بالحياة اليومية. قد يخرج الإنسان من صلاة ثم يجرح أهل بيته بكلمة، أو يدافع عن قضية عادلة بظلم خصمه، أو يبني مشروعًا خيريًا على أجور مؤخرة. ولا يسقط حق المظلوم بمجرد إحسان الظالم في باب آخر؛ يبقى حتى يؤدى، أو يعفو صاحبه، أو يقضي الله بينهما بعدله وفضله.

ويكشف حديث المفلس آلية الاستيفاء نفسها: تدخل الحسنات في قضاء الحقوق، فإن فنيت قبل تمام ما عليه أُخذ من خطايا أصحاب الحقوق فطرحت عليه. فلا تحصّن العبادة صاحبها من مظلمة أبقاها، ولا يبقى الحق خارج ميزان الحساب.

وقال صلى الله عليه وسلم: «أَوَّلُ مَا يُقْضَى بَيْنَ النَّاسِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِي الدِّمَاءِ» (صحيح البخاري، 6864؛ صحيح مسلم، 1678). للدماء حرمتها التي لا تذوب في الشعارات ولا تبررها الحماسة ولا يلغيها انتساب الجاني إلى قضية يراها عظيمة. من استسهل دمًا حمله إلى أول أبواب القضاء بين الناس.

الإيمان بحقوق العباد يجعل صاحبه أدق عدلًا وأسرع رجوعًا، من غير خوف يشل كل علاقة. يراجع الكلمة قبل أن يقذفها، ويثبت الخبر قبل نشره، ويعطي العامل حقه، ولا ينسب جهد غيره إلى نفسه. وإذا أخطأ، لم يجعل الاعتذار هزيمةً لمكانته؛ فالمكانة التي يحميها بالظلم ستقف خصمًا له.

وقد تختبئ المظلمة خلف العادة والمكانة: يستعمل سلطة وظيفية فيحمّل الضعيف ما لا يلزمه، أو يماطل قادرًا لأنه يعلم أن الآخر لا يستطيع مقاضاته، أو يستهين بخصوصية إنسان. وسمّى الحديث المظالم بأسمائها حتى لا تختبئ وراء قول صاحبه: لم أقصد شيئًا كبيرًا.

باب الإصلاح مفتوح ما دامت القدرة باقية. يرد المال، ويطلب المسامحة حين يكون الطلب مشروعًا لا ينشئ مفسدة أكبر، ويصحح الخبر، ويذكر من ظلمَه بخير في الموضع الذي أساء إليه، ويستفتي فيما خفي عليه طريق رد الحق. التوبة من ظلم الناس تقتضي صدق الندم وترك الظلم وبذل ما يستطيع لإيصال الحق.

وبهذا يكتمل تعريف الإفلاس: ليس فقد المال، بل فقد الحسنات عند استيفاء ما تعلّق بها من حقوق. فيرى العابد قبل يوم الحساب أن عدله مع الناس داخل في عبادته، لا بابًا منفصلًا يمكن أن تعوضه كثرة النوافل.

قبل أن تصير حسناتك محل استيفاء حق غيرك، أعطه حقه اليوم. وقبل أن يحمل لسانك إلى الميزان أسماء كثيرة، طهّره باعتذار ورد وإنصاف. العبادة التي يبنيها الإيمان باليوم الآخر تجمع قلبًا خاشعًا ويدًا أمينة ولسانًا يعرف أن وراء كل إنسان ربًا يقضي له.

وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ

بعد سقوط الفدية والاتكاءات يفتح الوحي باب الرجاء من داخل ملك الله. الشفاعة حق ثابت، لا واسطة تنازع الحكم ولا طريقًا يتجاوز الإيمان والعمل؛ وهي في النص نفسه مقيدة بالإذن والرضا والخشية.

يقول الله تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ﴾ [الأنبياء: 28]. الشافعون أنفسهم في مقام الخشية، ولا تكون الشفاعة إلا لمن رضي الله عنه وأذن أن يُشفع فيه، وعلمه محيط بالجميع. فلا تتحول الشفاعة في القلب إلى علاقة خاصة تعطل حكم الله.

ويقول سبحانه: ﴿يَوْمَئِذٍ لَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَٰنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا﴾ [طه: 109]. سمّى نفسه الرحمن في موضع الإذن؛ فالشفاعة باب رحمة، والرحمة نفسها محكومة بحكمته ورضاه. لا يقتحم أحد هذا الباب من غير إذن، ولا يفتح لمجرد الأماني.

ويظهر فضل النبي صلى الله عليه وسلم في حديث الشفاعة العظمى حين يشتد الكرب بالخلق، فيأتون الأنبياء حتى يأتوه، فيقول: «أَنَا لَهَا»، ثم يسجد لربه، ويقال له: «يَا مُحَمَّدُ، ارْفَعْ رَأْسَكَ، سَلْ تُعْطَ، وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ» (صحيح البخاري، 4476؛ صحيح مسلم، 193).

تبدأ الشفاعة بسجود. هذا وحده يعيد ترتيب المعنى كله. أعلى الخلق مقامًا لا يتقدم بين يدي ربه استقلالًا، وإنما يخر ساجدًا، ويحمد بما يفتح الله عليه، وينتظر الإذن. عظمة النبي صلى الله عليه وسلم تظهر في كمال عبوديته ورفعة منزلته عند الله، لا في إخراجه من مقام العبد.

وهذه الشفاعة العظمى من أعظم المقام المحمود الذي وعده الله به، وهي أشهر ما فُسِّر به قوله تعالى: ﴿عَسَىٰ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ [الإسراء: 79]. يحب المؤمن نبيه صلى الله عليه وسلم، ويعظم قدره، ويتبع سنته، ويسأل الله أن يرزقه شفاعته. فالمحبة الصادقة لا تفصل رجاء الشفاعة عن الاتباع.

في الدنيا يتعلم الناس البحث عن واسطة تتجاوز النظام أو تضغط على صاحب الحكم. أما شفاعة الآخرة فتهدم هذا التصور؛ الحكم لله، والإذن لله، والرضا لله، والفضل لله. الشافع مكرم بإذنه، والمشفوع له مرحوم برضاه، ولا يوجد باب خلف ملكه.

الشفاعة تحفظ القلب من اليأس والاتكال معًا. تفتح في الحساب باب الفضل، ولا تجعل المحبة والانتساب ستارًا لترك الطاعة. ومن رجا شفاعة النبي صلى الله عليه وسلم عظّم خبره، وسار على سنته، وتاب من مخالفته.

ويستقر في القلب أصل جامع: الشفاعة حق، ولا تكون إلا بإذن الله ورضاه. وتفاصيل أنواعها ومواطنها تُطلب من مواضعها العقدية المحررة، ويبقى هنا أثرها التعبدي حاضرًا.

يا رب، اجعلنا ممن ترضى قولهم وعملهم، وأكرمنا باتباع نبيك، ولا تجعل رجاءنا في شفاعته ستارًا على تفريطنا، بل قوةً على الصدق والتوبة والاقتداء.

الْعَمَلُ سَبَبٌ وَالنَّجَاةُ رَحْمَةٌ

يقول الله تعالى في أهل الجنة: ﴿الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمُ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النحل: 32]. العمل حاضر في طريق الدخول، والملائكة تذكره عند البشارة. فلا مكان لرجاء يطلب الجنة مع الإقامة على ترك أمر الله.

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لَنْ يُدْخِلَ أَحَدًا عَمَلُهُ الْجَنَّةَ». قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: «لَا، وَلَا أَنَا، إِلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَنِيَ اللَّهُ بِفَضْلٍ وَرَحْمَةٍ» (صحيح البخاري، 5673).

يجمع النصان بين سبب شرعه الله وفضل لا يستقل عنه أحد: باء الآية للسببية، والمنفي في الحديث معاوضة العمل واستحقاقه المستقل. يعمل العبد لأن الله أمر، ويدخل الجنة برحمة من هداه وأقدره وستر نقصه وقبل عمله وضاعفه وغفر تقصيره.

قالها رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهو أكمل الخلق عبادةً: لا أدخل إلا أن يتغمدني الله بفضل ورحمة. فأي عمل يبقى للعبد بعد ذلك ليرفعه في وجه ربه مطالبةً؟ يحمل طاعته بيد، ويحمل فقره وقلة حقه باليد الأخرى، ويرجو القبول والعفو.

وهذا الافتقار لا يطفئ العمل؛ يحرره من العجب والقنوط. فيصلي ويعلّم ويدعو ويعدل ويصل رحمًا وينصر مظلومًا ويثبت على مشروع نافع، ثم يرى التوفيق منةً، ويستغفر من النقص، ولا يحتقر من دونه.

والرحمة لا تصير ذريعة للتفريط. النبي صلى الله عليه وسلم الذي أعلن افتقاره إلى فضل الله ورحمته قام من الليل حتى تفطرت قدماه (صحيح البخاري، 4836؛ صحيح مسلم، 2820)، وجاهد وبلّغ وصبر. معرفة الفضل لم تقعده؛ زادته شكرًا وعبودية. ومن يرجو الرحمة يطلبها من أبوابها: إيمان وتوبة وطاعة وافتقار.

وقال النبي صلى الله عليه وسلم: «سَدِّدُوا وَقَارِبُوا وَأَبْشِرُوا» (صحيح مسلم، 2818). أمر بالسداد، ثم بالمقاربة عند العجز عن التمام، ثم فتح البشارة. وهذا ما يحتاجه القلب: وجهة صحيحة، ومجاهدة مستمرة، ورجاء لا ينطفئ.

ما يفتحه الله من عبادة أو علم أو إصلاح أو خدمة يستقبل بالشكر، لا بالإعجاب. ومن قصر عن التمام قارب واستعان ولم يترك ما بقي، ومن زل رجع؛ فلا يجعل الرحمة ذريعةً للإقامة، ولا التقصير حجةً للانقطاع.

وبعد الطاعة تأتي لحظة يكشف فيها القلب ميزانه: أيرى ما صنع، أم يرى من وفقه؟ يحمد الله، ويستغفر من النقص، ويسأل القبول؛ فتبقى الطاعة باب قرب ولا تصير عرشًا صغيرًا للنفس.

يمضي العبد بعمل لا يفتر وافتقار لا ينقطع. يعمل بأمر الله، ويخاف رد العمل لنقصه، ويرجو قبوله؛ فإذا دخل الجنة برحمة ربه عرف أن العمل الذي سار به كان هو أيضًا أثرًا من آثار تلك الرحمة.

عَدْلٌ يَفْتَحُ بَابَ الرَّحْمَةِ

في ميزان الله لا تحجب العبادة مظلمةً، ولا يخرج حق المظلوم من الحكم، ولا تضيع الحسنة الخفية.

يعرف العابد عنده قدر طاعته وقدر حق الناس؛ فيتواضع لما وُفِّق إليه، ويسارع إلى المعروف ولو لم تره عين.

يبذل وسعه، ثم يقف فقيراً إلى القبول. فلا يمنعه افتقاره من العمل، ولا يحوّل العمل إلى دعوى استحقاق.

وقد يطول الطريق بين الظلم وظهور جزائه؛ فيقرأ الظالم المهلة أمانًا، ويحمل المظلوم الصمت على النسيان. عندها يجيء النداء: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ﴾ [إبراهيم: 42].

المحور السادس: وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا

قد يقع الظلم ثم تمضي الأيام كأن شيئًا لم يقع. يثبت القرار الجائر، وتنتشر الكلمة الكاذبة، ويأخذ القوي ما ليس له، ثم ينام في ليلته ويستأنف أعماله ومكاسبه، بينما يبقى المظلوم يحمل أثر ما صنعه به. عند هذه المسافة بين الفعل والجزاء تبدأ أخطر التأويلات في القلب.

يفسر الظالم المغرور الإمهال رضا، أو يراه دليلًا على أن قوته أحكمت الأبواب. ويقرأ المظلوم اليائس التأخير نسيانًا لحقه، فيتحول ألمه إلى يأس أو إلى انتقام لا يقف عند العدل. وينظر المذنب إلى ما تراكم خلفه فيرى باب العودة أبعد من أن يبلغه. وهنا لا يحتاج القلب إلى تهدئة مصنوعة، بل إلى معرفة ربه.

يعرّف الوحي القلب بربه في موضع الظلم والتوبة: علم لا يغيب عنه فعل، وعدل لا يسقط معه حق، ورحمة تسع ذنب من تاب، وجلال يفتح الخوف والرجاء على العبودية. هكذا يدخل اليوم الآخر في الكلمة والقرار والشكوى والدعاء، ولا يبقى وعدًا بتسوية بعيدة.

إِنَّ اللَّهَ لَيُمْلِي لِلظَّالِمِ

يقول الله تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ ۝ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ﴾ [إبراهيم: 42-43]. تبدأ الآية بنفي الغفلة قبل أن تصف اليوم. فما تأخر لم يغب، وما سكت عنه الناس لم يخرج من علم الله.

علم الله محيط؛ يرى الظلم ساعة يقع، ويعلم ما سبقه من قصد، وما تبعه من أثر، وما احتمى به صاحبه من مال أو جماعة أو حجة. وتأخير الجزاء لا يغير حقيقة الفعل عنده، كما لا يحول مرور الزمن الباطل حقًا. يمهل لحكمة، ويؤخر إلى أجل معلوم، ثم يأتي اليوم الذي تسقط فيه الحجب التي خدعت الأبصار.

ويكون الظلم بعيدًا في صورة طاغية يبطش بأمة، ويدخل بيتًا أو مكتبًا أو هاتفًا: وارث يحبس حقًا، ومسؤول يحمّل ضعيفًا خطأه، وشخص يقطع سمعة إنسان برسالة، وقريب يستعمل المحبة لإكراه من تحته، وصاحب قدرة يعلم أن خصمه لا يملك الشكوى. تتفاوت الصور، ويبقى الأصل واحدًا: استعمال ما وهب الله في وضع الشيء خارج حقه.

وقال النبي صلى الله عليه وسلم: «إِنَّ اللَّهَ لَيُمْلِي لِلظَّالِمِ، حَتَّى إِذَا أَخَذَهُ لَمْ يُفْلِتْهُ»، ثم قرأ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود: 102] (صحيح البخاري، 4686؛

صحيح مسلم، 2583). السنة هنا تهدم أمنًا يصنعه طول المهلة؛ فالذي لم يؤخذ اليوم لم يخرج من سلطان الله.

الإملاء يمنح الظالم زمنًا، لكنه لا يمنحه براءة. يزيد ماله أحيانًا، ويعلو اسمه، ويصفق له من ينتفع به، فيحسب أن النتائج صدقت روايته. غير أن النتيجة العاجلة ليست حكمًا أخيرًا، والقدرة على إسكات الناس لا تمحو ما علمه رب الناس. أخطر ما تصنعه القوة أن تقنع صاحبها بأن تأخر العقوبة شهادة له.

الإيمان بالجزاء يمسك اختيار الظالم قبل أن يصير تاريخًا. ما دام الحق في قدرته يستطيع أن يكف الأذى، ويرد المال، ويصحح الخبر، ويعترف لمن ظلمه، ويحتمل سقوط شيء من صورته لنجاة حقيقته. وكل تأخير يزيد الأثر ويثقل الرجوع، من غير أن يغلقه ما دام زمن العمل باقيًا.

ولا تُحَمَّل توبة الظالم على المظلوم تكليفًا جديدًا. يطلب العفو بتواضع لا باستعلاء، ولا يستعمل الدين لإسكات من آذاه، ولا يعلن ندمًا يجمّل صورته ويترك المظلمة مكانها. صدق الرجوع في إزالة ما يستطيع من الأثر وأداء الحق، مع بقاء اختيار المظلوم فيما شرع الله له.

ثم يعرض القرآن حسرة الظالم حين تسقط الصحبة التي زينت له الطريق: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا ۝ يَا وَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ۝ لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا﴾ [الفرقان: 27–29]. تظهر الأسماء التي احتمى بها عذرًا، ثم لا يبقى منها إلا الحسرة.

قد يكون ذلك الخليل شخصًا، وقد يكون جمهورًا أو بيئة أو خطابًا اعتاد أن يبرر له. كانوا يقولون له إن الجميع يفعلون، وإن المصلحة أكبر من حق الفرد، وإن الاعتراف ضعف، وإن الضحية تستحق. ثم يقف وحده أمام اختياره. صحبة الباطل تعين على الفعل، ولا تحمل عن صاحبه تبعته.

وينتهي مقطع إبراهيم إلى عالم تبدلت أرضه وسماواته: ﴿وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ [إبراهيم: 48]. هناك لا تختبئ مؤسسة خلف مؤسسة، ولا إنسان خلف اسمه، ولا جريمة خلف تقادمها. يبرز الجميع للواحد القهار، فيصغر كل سلطان كان يمنع الحق من الظهور.

من عرف أن الله لا يغفل لم يحتج إلى ظلم صغير ليحمي مكسبًا صغيرًا. يخاف أن يكون الهدوء الذي يعيشه مهلة لا سلامة، وأن يكون النجاح الذي يحتفل به استدراجًا له لا علامة على رضوان ربه. فيتحول ذكر الآخرة من مشهد يروى إلى يد تكفه قبل التوقيع، وقبل الكلمة، وقبل أن يمد يده إلى ما ليس له.

حَقٌّ لَا يَضِيعُ وَإِنْ تَأَخَّرَ

أما هنا فيتجه وعد العدل إلى قلب المظلوم، بعد أن كشف حديث المفلس ما يخسره الظالم. فأشد من الألم أن يظن صاحب الحق أن قصته انتهت عند عجزه، أو أن ضعف بيانه ومحاصرة الشكوى أخرجا حقه من الوجود.

يقول الله تعالى: ﴿الْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [غافر: 17]. لا يقال للمظلوم إن ألمه وهم، ولا يطلب منه أن يقنع نفسه بأن ما وقع خير في ذاته. الذي يبني الطمأنينة هو أن يومًا يأتي لا ظلم فيه، ولا تضيع فيه حقيقة لأن صاحبها كان أضعف بيانًا أو سندًا.

تأخر الحق لا يسلبه صفته. ما بين المظلمة واستيفائها ليس فراغًا سقطت فيه القصة؛ هو زمن معلوم عند الله، ثم يأتي يوم لا تُظلم فيه نفس شيئًا، ولو ضعف صاحبها أو صغر حقه في أعين الناس أو مات الظالم قبل الاعتذار.

وقال النبي صلى الله عليه وسلم لمعاذ رضي الله عنه: «وَاتَّقِ دَعْوَةَ الْمَظْلُومِ، فَإِنَّهُ لَيْسَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ اللَّهِ حِجَابٌ» (صحيح البخاري، 2448؛ صحيح مسلم، 19). لم يجعل قوة المظلوم فيمن يعرفه، ولا في قدرته على إحكام عبارته؛ رفع قلبه مباشرة إلى الله، وحذر صاحب السلطة من دعوة تخرج من صدر لا يملك إلا صدقه.

قد لا يسمع الناس رواية المظلوم كاملة، وقد يعجز عن ترتيب ما وقع أو يضعف صوته أمام المال والمنصب والمنبر. أما الله فيعلم الحق من غير ملف مكتمل ولا حجة بليغة: يعلم لحظة الانكسار، والكلمة التي ابتلعها صاحبها خوفًا، والباب الذي لم يجد إليه طريقًا. وما عجز عن إيصاله إلى الخلق بلغ رب الخلق بلا حجاب.

هذا الحديث لا يحول الدعاء إلى بديل عن الأسباب. للمظلوم أن يوثق، ويشتكي، ويستعين بمن ينصره، ويطلب حكمًا عادلًا، ويحمي غيره من تكرار الأذى. وقد تكون هذه الوسائل واجبة حين يتعلق السكوت بحقوق آخرين. غير أن قلبه وهو يفعل ذلك لا يجعل الجهة البشرية آخر أبواب الحق؛ فوق كل باب رب يسمع ولا يحجبه عنه حارس.

والإيمان بالجزاء يحرس المظلوم من أن يصير نسخة ممن ظلمه. الغضب مفهوم، وطلب الحق مشروع، لكن تجاوز الحد يضيف مظلمة جديدة إلى الأولى. قد يملك أن يشوه من شوهه بأكثر مما فعل، أو أن يؤذي بريئًا من أهله، أو أن يكذب ليثبت حقًا صحيحًا. وهنا يعيد اليوم الآخر ضبط اليد واللسان: أطلب حقي من غير أن أحمل معي حقًا جديدًا لغيري.

وقال النبي صلى الله عليه وسلم: «لَتُؤَدُّنَّ الْحُقُوقَ إِلَىٰ أَهْلِهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ، حَتَّىٰ يُقَادَ لِلشَّاةِ الْجَلْحَاءِ مِنَ الشَّاةِ الْقَرْنَاءِ» (صحيح مسلم، 2582). إذا لم يهمل العدل نطحة بين بهيمتين، فلن يضيع ما جرى على إنسان علم الله ضعفه وأثر الجرح فيه.

والحق عند الله أوسع من ملف قانوني. يعلم الكلمة التي قيلت على انفراد، والخوف الذي زرعه التهديد، والسنوات التي تأثرت بقرار جائر، والمال الذي حُبس وما تبعه من حاجة، والكرامة التي أصابها الافتراء. قد تقف محكمة البشر عند ما ثبت لها، وهذا من العدل الذي تقدر عليه؛ أما علم الله فيحيط بما ثبت وما خفي، ولا يحتاج إلى أن يحول الألم إلى رقم حتى يحفظه. فإن عجزت الدنيا عن تمام الحكم، لم يعجز رب الدنيا والآخرة.

يقول سبحانه: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ ۝ يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾ [غافر: 51-52]. وعد النصر لا يحصره المؤمن في الصورة التي رسمها ولا في الموعد الذي اختاره، لكنه يوقن أن الباطل لا يملك الحكم الأخير.

قد يظهر النصر في دفع الظلم وزوال صاحبه، وقد يكون في قيام الحجة، أو حفظ الدين من أن ينهار تحت الأذى، أو بقاء كلمة الحق بعد موت قائلها، ثم يتم يوم يقوم الأشهاد. فلا نسمي كل تأخر نصرًا، ولا نطلب من المجروح أن يتخيل الألم فتحًا؛ وإنما نرفض أن نجعل حدود ما رأيناه حدودًا لوعد الله.

والعفو باب جليل، لكنه عبادة يختارها صاحب الحق طلبًا لما عند الله، لا وسيلة يفرضها الأقوياء عليه ليبقى الظلم مريحًا. قد يعفو حين يرى في العفو إصلاحًا، وقد يطلب حقه بالعدل. وفي الحالين يحذر أن تسكن المظلمة قلبه حتى تصير هويته كلها؛ هو عبد لله قبل أن يكون ضحية لعبد.

حين يطول الطريق، يحتاج المظلوم إلى صبر لا يخدره. الصبر يثبته على الحق، ويمنعه من بيع دينه ليأخذ تعويضًا سريعًا، ويعينه على متابعة الأسباب من غير أن يأكله انتظار النتيجة. هو عمل قلب وجوارح تحت وعد الله، لا استسلام لما يقدر البشر على تغييره.

وإذا عجز عن دفع ما وقع أو استيفاء حقه في الدنيا، بقيت له عبادات لا يسلبها الظالم: أن يشكو إلى الله، ويحفظ لسانه من الباطل، ويطلب النافع، ويستعين، ويمنع الأذى عن غيره، ويوقن أن قيمته لا يحددها ما فعله به المعتدي. الظلم يجرح حياته، ولا يملك أن يكتب منزلته عند ربه.

لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ

وقد يفتح هذا الوعيد عين إنسان على إسرافه هو، فتجتمع في ذاكرته وجوه آذاها وفرائض ضيعها وسنوات ابتعد فيها، ويقول له اليأس إن طريق العودة لغيره. عندها يناديه الله باسم العبودية، ويعرّفه بسعة مغفرته قبل أن يأمره بالإنابة.

يقول الله تعالى: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الزمر: 53].

غير أن الآية لا تقيم الرجاء على البقاء في الموضع نفسه. يتصل النداء مباشرة بالفعل: ﴿وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنْصَرُونَ ۝ وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ [الزمر: 54–55]. الرحمة تفتح الباب، والإنابة تعبره، والإسلام لله يغير جهة الحياة.

التوبة ليست شعورًا حزينًا يخفف ضغط الذاكرة ثم يترك السلوك كما هو. فيها إقلاع عن الذنب، وندم على فعله، وعزم صادق على ألا يعود إليه، واستدراك لحقوق الخلق بحسب القدرة والطريق المشروع. وقد يحتاج صاحب المظلمة إلى وقت وإجراء واستفتاء، لكن أول الصدق أن يتوقف عن إضافة ظلم جديد وهو يتحدث عن توبته.

وقال النبي صلى الله عليه وسلم: «إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَبْسُطُ يَدَهُ بِاللَّيْلِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ النَّهَارِ، وَيَبْسُطُ يَدَهُ بِالنَّهَارِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ اللَّيْلِ، حَتَّىٰ تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا» (صحيح مسلم، 2759). الليل لا يغلق ما فتحه النهار، والنهار لا يطرد من سقط في الليل. يتجدد النداء ما دام باب التوبة مفتوحًا.

يهزم الحديث صورة اليأس بمعرفة الرب: لا يشترط الله تاريخًا بلا سقوط حتى يقبل العبد؛ يدعوه أن يعود من سقوطه. ومع إثبات بسط اليد على الوجه اللائق بالله كما أثبته النبي صلى الله عليه وسلم، يبقى النداء عمليًا: تأخير التوبة مع فتح بابها إعراض، لا عجز عن الوصول.

وقال صلى الله عليه وسلم: «لَلَّهُ أَشَدُّ فَرَحًا بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ حِينَ يَتُوبُ إِلَيْهِ» من رجل وجد راحلته بعد أن أيس منها في أرض مهلكة (صحيح البخاري، 6309؛ صحيح مسلم، 2747). لا يعود التائب إلى رب يقبله على مضض؛ يعود إلى رب يحب التوابين ويفرح بتوبتهم على ما يليق بجلاله.

هذا الرجاء لا يهوّن الذنب، الذي يفرح بالتوبة هو الذي نهى وحذر وأقام الحساب. لكنه يمنع الذنب من أن يتحول إلى صنم جديد يملأ قلب صاحبه حتى ينسى سعة ربه. الندم عبادة حين يقود إلى الله، ويصير بابًا للشيطان حين يكرر على الإنسان أنه لا يستحق أن يصلي أو يدعو أو يبدأ.

قد يسقط العبد بعد توبة سابقة، فيأتيه الخجل من العودة. والواجب أن يصدق كل مرة: يترك الذنب، ويندم، ويعزم، ويأخذ بأسباب السلامة. لا يجعل تكرر السقوط دليلًا على جواز الإقامة، ولا يجعل ضعفه حجة على إغلاق باب لم يغلقه الله. المعركة الطويلة لا تعفيه من الصدق في هذه اللحظة.

ويكشف سياق الزمر ما يحدث حين يؤجل الإنسان هذه الرحمة حتى تنقلب الفرصة حسرة: ﴿أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ﴾ [الزمر: 56]. لم تكن المشكلة أن الطريق لم يُفتح، بل أنه رأى النداء ثم أبقى الرجوع أمنية مؤجلة.

وحين تصنع النفس أعذارها يأتي الجواب: ﴿بَلَىٰ قَدْ جَاءَتْكَ آيَاتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ﴾ [الزمر: 59]. الرجاء الصادق لا يخاصم الحقيقة؛ يعترف بالذنب بدل أن يعيد تسميته، ويخضع للوحي بدل أن يشترط على التوبة أن تبقي له هواه وصورته.

ويقول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا﴾، ثم يريهم نورهم يسعى بين أيديهم وبأيمانهم وهم يقولون: ﴿رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا﴾ [التحريم: 8]. تبدأ الحركة برجوع في الدنيا، وتنتهي بنور ودعاء يوم القيامة. ما يثقل صاحبه اليوم قد يصير بتوبة صادقة موضع ضياء.

لا تؤجل التوبة حتى تصلح مشاعرك كلها. ابدأ بما بين يديك: صلاة تعود إليها، ومادة محرمة تمحوها، ومال ترده، واتصال تعتذر فيه، وبيئة تغادرها، وباب علم تسأل منه عن الطريق. المشاعر قد تتبع الخطوة، أما انتظار قلب مثالي قبل الرجوع فقد يكون صورة أخرى من التسويف.

يَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا

المؤمن محتاج كل يوم إلى قلب لا يغتر بعمله ولا يقنط من رحمة ربه، وإن لم يكن في حال إسراف تقتضي بداية جديدة. لذلك يمتد الطريق بعد التوبة بين رغبة تجذبه إلى الله ورهبة تحرسه من الانحراف؛ وقد جمعهما القرآن في وصف عباده الصالحين.

يقول سبحانه: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾ [الأنبياء: 90]. الرغبة والرهبة هنا ليستا حالتين ساكنتين، أحاطتا بالمسارعة والدعاء والخشوع. يرجون فيتحركون، ويخافون فيتحرزون، ويخشعون فلا يرون لأنفسهم مقامًا على ربهم.

بالرغبة يعرف القلب فضل الله ووعده وقربه وقبول التوبة، وبالرهبة يعرف جلاله وحسابه وعقوبته وعدله. فإذا انفردت الرغبة عن العمل صارت أمنية، وإذا انفرد الخوف عن الرحمة صار قنوطًا. أما الوحي فيجمعهما في عبادة واحدة، لأن الرب المرجو هو نفسه الرب الذي يُخاف.

ويصف الله قيامهم في الخفاء: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ [السجدة: 16]. أخرجهم الخوف من دفء الفراش، وفتح لهم الطمع في فضل الله باب الدعاء، ثم تحرك المال من أيديهم. لم يبق الشعور داخل الصدر؛ صنع قيامًا وإنفاقًا.

وقد يبدو الإنسان مطمئنًا إلى نفسه ما دام يعمل، فجاء وصف آخر يرد العمل إلى الافتقار: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ ۝ أُولَٰئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ﴾ [المؤمنون: 60-61]. الوجل لم يوقفهم؛ صار داخل السرعة نفسها.

وبعد الطاعة يبقى القلب بين الوجل والرجاء؛ يستغفر من التقصير، ويسأل القبول، ويمضي إلى الخير من غير توقف ولا أمن. والذي وفقه أول مرة قادر أن يثبته، لكنه لا يجعل التوفيق السابق عهدًا يضمن له السلامة من كل انحراف لاحق.

وقال النبي صلى الله عليه وسلم: «لَوْ يَعْلَمُ الْمُؤْمِنُ مَا عِنْدَ اللَّهِ مِنَ الْعُقُوبَةِ مَا طَمِعَ بِجَنَّتِهِ أَحَدٌ، وَلَوْ يَعْلَمُ الْكَافِرُ مَا عِنْدَ اللَّهِ مِنَ الرَّحْمَةِ مَا قَنَطَ مِنْ جَنَّتِهِ أَحَدٌ» (صحيح مسلم، 2755). الحديث لا يدعو المؤمن إلى اليأس ولا الكافر إلى الأمن؛ يكشف اتساع الجانبين حتى لا يختزل الإنسان ربه في الشعور الذي يوافق حاله.

ميزان الخوف والرجاء لا يؤخذ من مزاج متقلب. قد يستيقظ الإنسان مرتاحًا فيظن أنه على خير، أو يثقل صدره فيتوهم أن الله أبعده. المشاعر لها أسباب كثيرة، أما معرفة الله فتؤخذ من الوحي. يقرأ وعده ووعيده، ثم يجعل حاله تابعًا للحق، لا يجعل الحق تابعًا لارتفاعه وانخفاضه.

بعد الذنب يحتاج إلى خوف يوقفه، ورجاء يعيده. وبعد الطاعة يحتاج إلى خوف من الرد، ورجاء في القبول. وفي الظلم يحتاج المظلوم إلى رجاء في عدل الله، وخوف يمنعه من التعدي، ويحتاج الظالم إلى خوف يوقظه، ورجاء يفتح له رد الحقوق. وفي النعمة يخاف الكفران ويرجو دوام الفضل بالشكر.

وهذا التوازن يحمي العبادة من التوتر المرضي كما يحميها من البرود. الخوف الذي يقطع الصلاة والدعاء لأنه يقول لصاحبه إنك هالك ليس الخوف الذي مدح الله؛ خوف الأنبياء دفعهم إلى المسارعة. والرجاء الذي يترك الفرائض ويقيم على الأذى ليس رجاءهم؛ رغبتهم أخرجتهم من المضاجع وحركت أيديهم بالنفقة.

تحفظ القلب أعمال تعيده إلى فقره: خلوة يدعو فيها، وآية وعيد يقف عندها، وآية رحمة يتلقاها لنفسه، وصدقة لا يتكئ عليها، وتوبة لا يؤجلها، وحق يرده. يقدم ما استطاع، ثم لا يرى في طاعته غنى عن القبول.

ومن دعا الله رغبًا ورهبًا لم يعد يرى العدل والرحمة خصمين. يخاف عدله أن يظلم، ويرجو عدله إذا ظُلم، ويخاف عقوبته أن يقيم على الذنب، ويرجو رحمته إذا تاب. تتغير الجهة في كل حال، ويبقى القلب متوجهًا إلى رب واحد لا إلى خوفه من نفسه ولا إلى أمانيه عنها.

بهذا الخوف والرجاء يتلقى القلب خبر المصير. لا تصير النار رعبًا منفصلًا، ولا الجنة أمنية رخوة؛ يسير إلى ربه بخوف يردعه ورجاء يحمله، حتى يلقى الحكم الذي تنتهي عنده الأسماء المؤقتة: ﴿فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ﴾ [الشورى: 7].

المحور السابع: فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ

تبدو أحكام الدنيا نهائية وهي مؤقتة: يربح إنسان قضية ويخسر الحق، ويفقد آخر موقعه ويبقى له عند الله ما لم يره أحد. ترتفع أسماء وتخفت، ثم يأتي يوم لا تحمي فيه الشهرة باطلًا، ولا يحتاج الحق إلى صوت أعلى من غيره.

قال الله تعالى: ﴿فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ﴾ [الشورى: 7]. تنتهي الطرق إلى دارين، وتنقطع قدرة النتائج العابرة على تسمية الفوز والخسارة.

ولهذا يدخل المصير في الاختيار الحاضر: تظهر عند النهاية حقيقة الصلاة والرحمة والوفاء والصبر، كما يظهر أثر التكذيب والخوض وترك الحق. وما يبدو كلمةً عابرة أو مجاهدةً ثقيلة قد يكون أول الطريق إلى إحدى الدارين.

ذَٰلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ

يقول الله تعالى: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَٰلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ۝ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ [التغابن: 9–10].

سمّاه يوم الجمع، ثم سمّاه يوم التغابن. يجتمع الخلق، وتظهر في اجتماعهم الخسارة التي لم تكن تُرى على حقيقتها. أناس ظنوا أنهم سبقوا لأنهم أخذوا نصيبهم عاجلًا، ثم علموا أن ما جمعوه لم يحملهم. وآخرون فوّتوا لوجه الله ما كان قريبًا من أيديهم، فإذا الذي ظنه الناس فواتًا صار نجاةً وفوزًا عظيمًا.

وتبدأ الآية بالإيمان والعمل، ثم تذكر تكفير السيئات وإدخال الجنة: عمل حاضر، وفضل محيط به. فلا يستغني المؤمن بعمله، ولا يحتج المقصر بالفضل وهو معرض عن الإيمان والعمل.

وتتبدل هنا أسماء النجاح. نجاح يرفع صاحبه في السوق أو المنصب أو الجمهور، ثم يقطعه عن آيات الله ولقائه، ليس نجاحًا مهما اتسعت آثاره في المرحلة. وخسارة تحفظ للإنسان دينه وصدقه وحق غيره قد تؤلمه الآن، لكنها لا تدخل يوم التغابن باسم الخسارة التي عرفها الناس.

ويأتي السؤال القرآني أشد مباشرة: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ۝ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ۝ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا ۝ ذَٰلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوًا﴾ [الكهف: 103-106].

الخسارة سعي ضل وصاحبه يحسب أنه يحسن، لا مجرد كسل أو قلة حركة. فكثرة الجهد لا تهدي الوجهة، والحماسة لا تجعل الباطل حقًا، والإعجاب لا يغني عن سؤال الوحي. والآيات تصف في أصلها من كفر بآيات ربه ولقائه، فلا تُنزّل أحكامها على مسلم بعينه بغير حق؛ لكن المؤمن يخشى عمًى يطمئن معه صاحبه إلى نفسه وهو بعيد عن هدى الله.

قد ينفق الإنسان عمرًا في بناء صورة يراها حسنة، أو يدافع عن موقف لأن التراجع يكلفه اسمه لا لأن الدليل معه. يوم التغابن يرده إلى سؤال أشد من إعجاب الناس: ماذا يبقى من هذا عند الله؟

ومن رحمة الله أن الحكم لم يقع بعد. ما دام الإنسان في زمن العمل يستطيع أن يصحح وجهته؛ والاعتراف المبكر بخطأ الطريق مكسب، ولو هدم صورة محبوبة. الخسارة أن يعرف الإشارة ثم يتقدم لأن الرجوع يؤلمه.

لا تجعل يوم التغابن بعيدًا عن جدولك الصغير. حين تختار ما يرضي الله وتخسر شيئًا من العاجل، لا تسمّ ما وقع خسارة نهائية. وحين تربح ما يعينك على معصيته أو ظلم عباده، لا تسمّه فوزًا لأن الناس هنؤوك به. بين الاسمين يوم يكشفهما، وبينك وبين ذلك اليوم فرصة أن تعيد تسمية الأشياء قبل أن تثبت أسماؤها.

يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ

يقول الله تعالى: ﴿يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِم بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [الحديد: 12]. في يوم انطفأت فيه مصادر الضوء المألوفة، يسعى نور المؤمنين معهم، وتأتي البشارة قبل دخول الجنة: النور ليس زينةً للمشهد، بل علامة طريق وطمأنينة وصول.

ثم يظهر افتراق أخفته الصحبة الظاهرة: ﴿يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ﴾ [الحديد: 13]. كانوا معهم في الصورة، ولم يحملوا نورهم؛ فالقرب من المؤمنين يعين على الطريق، ولا يصير إيمانًا يُقتبس ساعة الافتراق.

ويكشف الجواب ما كان يعمل في الداخل: ﴿أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ قَالُوا بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ﴾ [الحديد: 14]. فتنة وتربص وريب وأماني طال بها التأجيل حتى جاء أمر الله. أما المؤمن فيسأل تمام العطية التي سار إليها: ﴿رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا﴾ [التحريم: 8].

وترد السنة بالحوض فتصل المحبة والاتباع بمشهد الورود. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أَنَا فَرَطُكُمْ عَلَى الْحَوْضِ، وَلَيُرْفَعَنَّ رِجَالٌ مِنْكُمْ، ثُمَّ لَيُخْتَلَجُنَّ دُونِي، فَأَقُولُ: يَا رَبِّ أَصْحَابِي، فَيُقَالُ: إِنَّكَ لَا تَدْرِي مَا أَحْدَثُوا بَعْدَكَ» (صحيح البخاري، 6576).

النبي صلى الله عليه وسلم سابق أمته إلى الحوض، ثم يُذاد عنه من أحدث بعده؛ فتغدو المحبة اتباعًا لا دعوى، ويعود وقع الحديث أولًا على قلب المؤمن: ماذا قدّم من هواه على السنة، وما الذي يستطيع أن يرجع عنه قبل اللقاء؟

ويقول الله تعالى: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ۝ ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾ [مريم: 71-72]. يثبت الوحي الورود والنجاة، ويربطها بالتقوى، من غير تخيل كيفية لم يثبت بها النص. النجاة فعل من الله: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي﴾.

وفي حديث الصراط يخبر النبي صلى الله عليه وسلم أن الأمانة والرحم تقومان على جنبتيه، وأن الناس تجري بهم أعمالهم، ونبيهم قائم يقول: «رَبِّ سَلِّمْ سَلِّمْ» (صحيح مسلم، 195).

إِنَّهَا لَإِحْدَى الْكُبَرِ نَذِيرًا لِلْبَشَرِ

النار في القرآن حقيقة مخلوقة، وعذابها حق، لكن الوحي لا يقدمها مادةً لإثارة خوف عابر ثم يترك القارئ بعيدًا عن أسباب الطريق. يقول الله تعالى: ﴿إِنَّهَا لَإِحْدَى الْكُبَرِ ۝ نَذِيرًا لِلْبَشَرِ ۝ لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ﴾ [المدثر: 35-37]. الإنذار موضوع أمام الإرادة الآن: تقدم أو تأخر. قبل أن تكون النار خاتمة، هي نذير يدخل في لحظة الاختيار.

ثم يقود السياق إلى السؤال الذي يكشف الطريق: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ۝ إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ ۝ فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ ۝ عَنِ الْمُجْرِمِينَ ۝ مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ﴾ [المدثر: 38-42]. جاء السؤال عن الطريق: ﴿مَا سَلَكَكُمْ﴾، فجاء الجواب أفعالًا وطرائق حياة.

﴿قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ ۝ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ ۝ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ ۝ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ ۝ حَتَّىٰ أَتَانَا الْيَقِينُ﴾ [المدثر: 43-47]. صلاة ضاعت، ومسكين لم يُطعم، وخوض حمل صاحبه مع الجماعة، وتكذيب باليوم الآخر؛ اجتمعت عبادة الله وحق الضعيف ومسؤولية الكلمة وأصل الإيمان في جواب واحد.

كانت الصلاة بابًا مفتوحًا كل يوم، وكان جوع المسكين حقًا يستطيعون دفعه، وكان الخوض تيارًا اختاروا أن يضيفوا أصواتهم إليه. لم يحتاجوا إلى قيادة الباطل حتى يحملوا وزره؛ كفى أن مضوا معه. ومن يسمع الجواب اليوم يستطيع أن يحفظ صلاته، ويطعم، ويخرج من مجلس يذهب به إلى ما لا يرضي الله.

يتصل التكذيب بيوم الدين بهذه الأعمال اتصالًا ظاهرًا. إذا غاب اليوم من القلب سهل تأخير الصلاة، وبرد الإحساس بالمسكين، وخفت الكلمة التي تمضي مع الخائضين. يعيد الوحي الغيب إلى داخل السلوك، حتى يصبح حضور الآخرة في الفعل لا في الإقرار وحده.

ويقول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: 6]. بدأ الأمر بالنفس ثم الأهل. المحبة التي لا تبالي بمصير المحبوب ناقصة، والتربية التي تريد راحته العاجلة ولو ضيعت صلاته وصدقه لا تقيه.

وقاية الأهل ليست صراخًا دائمًا ولا تحويل البيت إلى ساحة تهديد. هي تعليم صادق، وقدوة، ودعاء، وحزم رحيم، وبيئة تعين على الطاعة، واعتراف من الوالد حين يخطئ. من خوّف أبناءه بالنار ثم ظلمهم أو كذب أمامهم أضعف أثر كلمته؛ ومن أحبهم لوجه الله جمع لهم الرحمة والحدود.

وتصور سورة الملك اعتراف أهل النار: ﴿كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ۝ قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ ۝ وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ۝ فَاعْتَرَفُوا بِذَنبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [الملك: 8–11]. جاء النذير، لكن السمع والعقل لم يقودا إلى الاستجابة.

السمع النافع يصغي للحق، والعقل النافع ينقاد له حين يتبين. قد يعرف الإنسان نصوص الوعيد ثم يغلفها بالاعتياد حتى لا تعود توقظه، وقد يستعمل ذكاءه في إنتاج الأعذار بدل أن يفتح به طريق التوبة. اعتراف أهل النار يضغط على الحاضر: اسمع الآن قبل أن يصير السمع حسرة.

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «حُفَّتِ الْجَنَّةُ بِالْمَكَارِهِ، وَحُفَّتِ النَّارُ بِالشَّهَوَاتِ» (صحيح مسلم، 2822). الطريق لا يقدم نفسه دائمًا في صورة تناسب نهايته. قد تأتي المعصية لينةً سريعةً محبوبة، ويأتي الواجب ثقيلًا على النفس، فتحتاج البصيرة أن ترى ما وراء الحافة.

المكاره ما يشق على النفس من طاعة وصبر وكف عن الحرام وأداء حق يفوّت مصلحة عاجلة، لا تعذيب النفس ولا تحريم الطيبات. والشهوات هي ما حرمه الله أو قاد إلى تضييع أمره، لا كل لذة. فلا تكون السهولة دليل الصواب، ولا المشقة وحدها دليل الفضل؛ الحكم لأمر الله.

الخوف النافع يخرج من الخطر ولا يحبس في الرعب: يحمل إلى الصلاة والإطعام وترك الخوض وتعليم الأهل، ويجعل الإنذار شفقةً تفتح أسباب النجاة، لا مادةً يتلذذ بها الواعظ أو يملؤها الخيال.

وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا

يقول الله تعالى: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾ [الزمر: 73]. لم يقل: الذين تمنوا، ولا الذين انتسبوا؛ قال: ﴿الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ﴾. ربط الطريق بمعرفة الرب ومراقبته، ثم استقبلتهم الملائكة بالسلام والطيب والخلود.

ومن آثار طيبهم في الدنيا ما بنته التقوى في العقيدة والقلب واللسان والكسب، حتى استقبلتهم الملائكة بقولها: ﴿طِبْتُمْ﴾. لم يدخلوا بلا نقص ولا بغير فضل الله، لكن الجنة لم تكن حلمًا منفصلًا عن الحياة التي اختاروها لربهم.

ثم يجيب أهلها بالحمد: ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ۝ وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الزمر: 74-75]. يبدأ المشهد بالحمد وينتهي بالحمد.

لم يقل أهل الجنة: صدقنا نحن تقديرنا، أو أنجزنا نحن الطريق. قالوا: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ﴾. العمل مذكور: ﴿فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾، لكن القلب عند الوصول لا يلتفت إلى نفسه؛ يرى وعد الله وفضله. هذه هي العبودية التي لا تنتهي عند دخول الدار، بل تكتمل بالحمد.

وتفتح سورة الإنسان باب الجنة من أعمال لا يصفق لها الناس كثيرًا: ﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا ۝ وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ۝ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا ۝ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا﴾ [الإنسان: 7-10].

وفاء وخوف وإطعام وإخلاص؛ لم يبق اليوم الآخر رهبةً في الداخل، بل حرّك الطعام من أيديهم، ولم يجعل العطاء طريقًا إلى ثناء الضعيف: ﴿لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا﴾. فجاء الجواب من جنس ما حملته القلوب: ﴿فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ۝ وَجَزَاهُم بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا﴾ [الإنسان: 11-12].

ولا يقتطع النص النعيم عن الطريق؛ ففي ختام المقطع: ﴿عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ۝ إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا﴾ [الإنسان: 21-22]. ما خفي من السعي يلقاه صاحبه مشكورًا، والله هو الذي هداه إليه وأعانه عليه.

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما يرويه عن ربه عز وجل: «أَعْدَدْتُ لِعِبَادِيَ الصَّالِحِينَ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ عَلَىٰ قَلْبِ بَشَرٍ» (صحيح البخاري، 3244؛ صحيح مسلم، 2824). يصف الوحي من الجنة ما يبني الشوق، ثم يضع حدًا للخيال: وراء ما عرفت ما لم تره عين ولم تسمعه أذن ولم يخطر على قلب.

ولا يحتاج القلب إلى خيال يكمل ما سكت عنه الوحي؛ يكفيه أن الذي أعدها هو الله، وأن وعده لا يخلف، وأن وراء ما عرف نعيمًا لم يخطر على قلب بشر. الشوق هنا تصديق للخبر وثقة بالوعد.

والجنة ليست وفرة لذة مع بقاء أوجاع النفس القديمة. يقول الله تعالى: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ ۝ لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾ [الحجر: 47-48]. يذهب الغل، ويذهب النصب، ويذهب خوف الخروج. تكتمل سلامة المكان بسلامة الصدر والدوام.

ويقول أهلها: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ۝ الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ﴾ [فاطر: 34-35]. الحزن الذي لازم الإنسان بأشكال لا يحصيها يذهب، وهم ينسبون المقام إلى فضله: ﴿مِن فَضْلِهِ﴾.

وقال النبي صلى الله عليه وسلم: «مَنْ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ يَنْعَمُ لَا يَبْأَسُ، لَا تَبْلَىٰ ثِيَابُهُ، وَلَا يَفْنَىٰ شَبَابُهُ» (صحيح مسلم، 2836). الدنيا تعلم الإنسان أن كل جديد يبلى، وكل شباب يذهب، وكل فرح يخالطه خوف النهاية. الجنة تقطع هذا القانون؛ نعيم لا يتحول بمرور الزمن إلى فقد.

ويكتمل معنى الدوام حين يؤتى بالموت. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «يُؤْتَىٰ بِالْمَوْتِ كَهَيْئَةِ كَبْشٍ أَمْلَحَ» فيُعرَّف به أهل الجنة وأهل النار، ثم يذبح، ويقال: «يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ، خُلُودٌ فَلَا مَوْتَ، وَيَا أَهْلَ النَّارِ، خُلُودٌ فَلَا مَوْتَ» (صحيح البخاري، 4730؛ صحيح مسلم، 2849).

انقطع آخر ما كان ينهي كل شيء في الدنيا. لأهل الجنة خلود لا يخالطه خوف الفناء، ولأهل النار خلود لا يفتح لهم الموت بابًا للخلاص.

أمام الخلود تصغر مشقة الطاعة العاجلة وبريق الشهوة؛ ما يثقل الآن ينتهي إلى دار لا نصب فيها، وما يلمع لحظة قد يفتح مآلًا لا ينتهي.

فوق هذا النعيم كله يرفع القرآن القلب إلى ما هو أكبر: ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [التوبة: 72].

المحور الثامن: وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ

انتهى وصف الجنة إلى أبواب مفتحة، وسلام، وطيب، وحمد، ونعيم لا يبلى، وحياة لا يقطعها موت. ولو وقف الوعد عند هذا لكان فوق ما تستطيع القلوب أن تتخيله؛ لكن القرآن يرفع عين المؤمن من الدار إلى رب الدار، ومن العطية إلى رضا ربها. قال سبحانه بعد ذكر الجنات والخلود والمساكن الطيبة: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ﴾، ثم جاءت الكلمة التي تعلو على الوصف كله: ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [التوبة: 72].

هناك يعرف القلب أن الرحلة لم تكن طلبًا للنجاة أو فرارًا من النار أو سعيًا إلى نعيم منفصل عن المنعم. كان الطريق من أوله إليه: يصلي له، ويترك له، ويصبر له، ويرجوه ويخافه. فإذا بلغت الرحلة منتهاها ظهر أصل العبودية الذي حمل الأعمال كلها: رب عُبد في الغيب، ووعد صُدق قبل أن يُرى، ولقاء عاش القلب على رجائه حتى صار حاضرًا.

فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ

يقول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ﴾ [الانشقاق: 6]. كل كدح الإنسان يجري إلى ربه؛ فيلقى ربه، ويلقى عنده ما قدم وجزاءه. قد ينسى جهة الطريق وهو يمضي فيه، أما الطريق فلا ينسى منتهاه.

الكدح كلمة تحمل ثقل العمر: تعب الجسد، ومغالبة النفس، وتكرار المحاولة، وأوجاعًا لا يختارها المرء، وأعمالًا لا يصفق لها أحد. يدخل فيه صبر الطاعة، وكف النفس عن الشهوة، والقيام بحقوق الناس مع التعب، والثبات حين تضيق الأسباب. كل ذلك يمضي إلى الله، ولا يضيع منه ما حُمل صادقًا.

الإيمان باللقاء يصحح حركة الحياة ولا يبددها. يسمع المؤمن: ﴿إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾، فيعلم أن عمله نفسه ذاهب إلى الله. قد تخفى ثمرة جهده، أو ينتهي مشروع قبل تمامه، أو يموت قبل أن يراه؛ وما أخلصه لله لا يسقط خارج الطريق.

ثم يجيء الأمر في خاتمة سورة الكهف جامعًا رجاء اللقاء والعمل والإخلاص: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ

رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [الكهف: 110]. رجاء اللقاء لا يبقى أمنية رخوة، يطلب عملًا صالحًا، ويطلب أن يكون العمل له وحده.

يتعلق صلاح العمل بما شرعه الله، وصفاؤه بمن قُصد به. قد يطيل المرء العبادة ويفتح بها طريقًا إلى ثناء الخلق، وقد يعمل عملًا صغيرًا لا يعلمه أحد فيصونه من المنّ والتطلع. آية اللقاء تجمع الصلاح والإخلاص حتى لا يصل العبد بعمل كثير فقد جهته.

وحين يمدح على طاعة يشكر الثناء الصادق، ولا يجعل قلبه يقيم فيه، يرد العمل إلى من وفقه ويسأله القبول. يحفظ حقوق الناس، ولا يجعل رضاهم القبلة التي تستدير معها العبادة.

ويقول سبحانه: ﴿مَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [العنكبوت: 5]. قد يطول الطريق في إحساس السائر، لكن أجل الله آت. وختم الآية بالسميع العليم يملأ زمن الانتظار بالحضور: يسمع الدعاء الذي لم يسمعه الخلق، ويعلم المجاهدة التي لم تظهر في السيرة، ويعلم موضع الصدق من كلمات متشابهة وأعمال متقاربة.

ويعين رجاء اللقاء على الصلاة والصبر. قال تعالى: ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ ۝ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَاقُو رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ [البقرة: 45-46]. خف ثقل الصلاة على الخاشعين لأنهم يرونها رجوعًا متكررًا إلى من يرجون لقاءه، ويرون الصبر طريقًا مفتوحًا إليه.

كل صلاة صادقة تعلّم القلب أن اللقاء ليس غريبًا عن حياته: يقرأ كلام ربه، ويركع ويسجد له، ويسأله الهداية، ثم يعود إلى شأنه وقد تجددت جهته.

ومحبة اللقاء لا تعني استعجال الموت ولا الفرار من تكاليف الحياة. بيّن النبي صلى الله عليه وسلم ذلك حين قال: «مَنْ أَحَبَّ لِقَاءَ اللَّهِ أَحَبَّ اللَّهُ لِقَاءَهُ، وَمَنْ كَرِهَ لِقَاءَ اللَّهِ كَرِهَ اللَّهُ لِقَاءَهُ». فلما قالت عائشة رضي الله عنها: إنا لنكره الموت، قال: «لَيْسَ ذَاكِ، وَلَكِنَّ الْمُؤْمِنَ إِذَا حَضَرَهُ الْمَوْتُ بُشِّرَ بِرِضْوَانِ اللَّهِ وَكَرَامَتِهِ، فَلَيْسَ شَيْءٌ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا أَمَامَهُ، فَأَحَبَّ لِقَاءَ اللَّهِ وَأَحَبَّ اللَّهُ لِقَاءَهُ» (صحيح البخاري، 6507؛ صحيح مسلم، 2684).

تظل النفس مفطورة على كراهة ألم الموت وفراق المحبوبين، ولا يذمها الوحي لمجرد ذلك. الذي يتغير عند البشارة هو جهة القلب: حين يكشف للمؤمن رضوان الله وكرامته، يغدو ما أمامه أحب إليه. عاش يصدق بالغيب، فإذا لاحت البشارة لم يعد يريد الرجوع إلى وراء. ما كان رجاءً صار استقبالًا، وما كان وعدًا صار أحب ما يتقدم إليه.

وقال الله في وصف أوليائه: ﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا﴾ [الأحزاب: 44]. سلام في يوم اللقاء من الرب الذي حفظهم في الطريق، وسمع نجواهم، وقبل توبتهم، وأمدهم بما لم يملكوا. فلا يستقبل المؤمن يوم اللقاء بوعد الوحشة؛ يستقبله بوعد السلام.

ويأتي نداء النفس المطمئنة عند رجوعها إلى ربها: ﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ۝ ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ۝ فَادْخُلِي فِي عِبَادِي ۝ وَادْخُلِي جَنَّتِي﴾ [الفجر: 27-30]. رجوع إلى الرب، ورضا ورضوان، وعباد وجنة. حملت العبودية النفس إلى دارها، واستقبلها النداء بالوصف الذي كانت تطلبه في خفائها: ﴿مَّرْضِيَّةً﴾.

وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ

قال الله تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة: 72].

جنات وأنهار وخلود ومساكن طيبة؛ ثم رضوان من الله أكبر. أعلى ما في الوصول أن يعلم العبد أن ربه رضي عنه، وأن خوف الرد انتهى إلى رضا لا يداخله سخط.

كان المؤمن في الدنيا يعمل ولا يدري: هل بلغ عمله موضع القبول؟ يصلي ثم يستغفر، ويتصدق ثم يخشى على قلبه، ويتوب ثم يسأل الثبات، ويجتهد ولا يمن على الله. وحين يسمع رضوان الله في الجنة ينتهي خوف الرد. قال النبي صلى الله عليه وسلم: «إِنَّ اللَّهَ يَقُولُ لِأَهْلِ الْجَنَّةِ: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ، فَيَقُولُونَ: لَبَّيْكَ رَبَّنَا وَسَعْدَيْكَ، وَالْخَيْرُ فِي يَدَيْكَ، فَيَقُولُ: هَلْ رَضِيتُمْ؟ فَيَقُولُونَ: وَمَا لَنَا لَا نَرْضَى يَا رَبِّ وَقَدْ أَعْطَيْتَنَا مَا لَمْ تُعْطِ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ، فَيَقُولُ: أَلَا أُعْطِيكُمْ أَفْضَلَ مِنْ ذَلِكَ؟ فَيَقُولُونَ: يَا رَبِّ، وَأَيُّ شَيْءٍ أَفْضَلُ مِنْ ذَلِكَ؟ فَيَقُولُ: أُحِلُّ عَلَيْكُمْ رِضْوَانِي، فَلَا أَسْخَطُ عَلَيْكُمْ بَعْدَهُ أَبَدًا» (صحيح البخاري، 6549؛ صحيح مسلم، 2829).

ثم يمنحهم ما هو أفضل من كل ما بأيديهم: رضوانه الذي لا يعقبه سخط أبدًا. عندها يبلغ الأمن غايته.

وفي ختام مشهد عيسى عليه السلام يوم القيامة يقول الله: ﴿هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾

[المائدة: 119]. الصدق الذي قد يكلف صاحبه في الدنيا يظهر يومًا نافعًا، ثم لا تنتهي ثمرته عند النجاة؛ تبلغ رضا الله عن الصادق ورضاه عن ربه.

رضاهم عنه امتلاء بما ظهر لهم من فضله وعدله وكرمه؛ فلا تبقى حسرة ولا اعتراض، ويجتمع الفوز في رضاه عنهم ورضاهم عنه.

ويقول سبحانه: ﴿جَزَاؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ﴾ [البينة: 8]. يصل السياق بين رضوان الآخرة وخشية الرب في الدنيا. الخشية ليست فزعًا يبعد العبد؛ هي معرفة تورث قلبًا يراقب، ويعظم، ويرد الهوى حين يخالف الأمر، ويطلب الرضا قبل أن يطلب راحته.

وأخبر الله عن رضاه في بيعة الرضوان: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ [الفتح: 18]. سبق الرضاُ الفتحَ، وسبق علمُ ما في القلوب السكينةَ؛ فكانت قيمة الموقف في صدقه عند الله قبل ظهور النتيجة للناس.

رضوان الله يطلق القلب في البذل من غير عبودية للنتيجة. يثبت على دعوة أو تعليم أو إصلاح، وينصر حقًا لا يصفق له أحد، ويبذل نفسه في جهاد مشروع، وقد لا يرى ثمرة قريبة؛ لأن غايته الأولى أن يقع العمل حيث يحبه الله.

ويقول سبحانه: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾ [البقرة: 207]. حين تكون مرضاة الله هي المبتغى تبذل النفس لله؛ ويأتي ختام الآية بالرأفة حتى لا يفهم البذل هلاكًا أجوف. الذي باع نفسه لله ابتغاء مرضاته سلّمها إلى أرحم بها منه.

ويقابل القرآن بين طريقين لا يجمعهما تحسين الأسماء: ﴿أَفَمَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَ اللَّهِ كَمَن بَاءَ بِسَخَطٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ [آل عمران: 162]. قد يتشابه الطريقان في أعين الناس، وقد يملك صاحب السخط قوةً ومدحًا، ويخسر طالب الرضوان شيئًا قريبًا؛ لكن الفرق عند الله لا تمحوه الصورة. واحد يتبع رضوانه، وآخر يرجع بسخطه.

ويعود رضا الناس إلى قدره. رضا الوالدين في المعروف عبادة، وشكر الخلق ومراعاة مشاعرهم إحسان؛ لكن أحدًا لا يملك الرضوان الذي لا سخط بعده. من طلب الرضوان الأكبر أحسن إلى الناس من غير أن يعبد حكمهم عليه، واعتذر إذا أخطأ من غير أن يبيع الحق ليحفظ صورته.

وقد يكون ابتغاء مرضاة الله في قرار لا يراه أحد: كلمة يمتنع عنها، وحق يعترف به على نفسه، ورحمة يصل بها رحمًا، وعلم يبذله، وعمل صالح يخفيه. لا تصنع هذه اللحظات دائمًا قصة، لكنها تصنع قلبًا يعرف ما يبتغي.

إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ

يقول الله تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ ۝ وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ ۝ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة: 20-23].

جاءت الآيات بعد كشف حب العاجلة وترك الآخرة، ثم انتهت إلى وجوه ناضرة: ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾. ارتفعت العين من عاجلة تزول إلى رب كان الإيمان به حياة الغيب كلها.

عبدوه في الغيب، وعرفوه بكلامه وأسمائه وآثار رحمته، وناجوه من وراء الحجب. ثم أُكرموا بالنظر إلى ربهم.

هناك يكون النظر إلى وجهه الكريم أحب إليهم من كل نعيم الجنة.

قال الله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [يونس: 26]. وفسر النبي صلى الله عليه وسلم الزيادة بما يفتح غاية الوعد. قال: «إِذَا دَخَلَ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ» ناداهم الله، ثم «يَكْشِفُ الْحِجَابَ، فَمَا أُعْطُوا شَيْئًا أَحَبَّ إِلَيْهِمْ مِنَ النَّظَرِ إِلَى رَبِّهِمْ عَزَّ وَجَلَّ»، ثم تلا: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ (صحيح مسلم، 181).

أُعطوا الجنة كلها، ثم كان النظر إلى ربهم أحب إليهم.

جاءت السنة ففسرت الزيادة بأعلى ما فوق الحسنى: النظر إلى رب العالمين. اكتملت العطايا، ثم بقي ما لا يوزن بجنسها؛ فظهر لماذا كان رضوان الله أكبر، ولماذا لم تكن الجنة غاية منفصلة عن ربها.

هنا يبلغ الحب الذي تربى في الغيب غايته؛ لا تشغل الجنة أهلها عن ربها، بل تدلهم نعمها عليه، ثم ترتفع بهم الزيادة إلى النظر إليه سبحانه.

وتظهر فداحة الحرمان في قول الله عن المكذبين: ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾ [المطففين: 15]. وراء العذاب حجاب عن الرب. لم يعرفوا في الدنيا خسارة الإعراض عنه، فلما جاء اليوم ظهرت الخسارة في أشد صورها: الناس فريق يرى ربه في النعيم، وفريق محجوب عنه.

يثبت أهل السنة ما أثبته الله ورسوله: يرى المؤمنون ربهم يوم القيامة وفي الجنة رؤية حقيقية تليق بجلاله، من غير إحاطة ولا تكييف ولا تمثيل. قال سبحانه: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الأنعام: 103]. نفي الإدراك لا ينفي أصل الرؤية؛ فالأبصار تراه ولا تحيط به، ولا يحيطون به علمًا. يكفي المؤمن صدق الخبر وعظمة الوعد، ولا يتخيل الكيفية.

وقال النبي صلى الله عليه وسلم لأصحابه ليلة نظروا إلى القمر: «إِنَّكُمْ سَتَرَوْنَ رَبَّكُمْ كَمَا تَرَوْنَ هَذَا الْقَمَرَ، لَا تُضَامُّونَ فِي رُؤْيَتِهِ، فَإِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ لَا تُغْلَبُوا عَلَى صَلَاةٍ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَصَلَاةٍ قَبْلَ غُرُوبِ الشَّمْسِ فَافْعَلُوا» (صحيح البخاري، 7434).

شبّه النبي صلى الله عليه وسلم وضوح الرؤية وعدم التضام برؤية القمر، لا المرئي بالمرئي؛ فالله ليس كمثله شيء. ثم وصل البشارة بالمحافظة على الفجر والعصر، فرد الشوق إلى موعدي عبادة في اليوم.

قد يقوم العبد إلى الفجر أو العصر مثقلًا، ولا يجد لذةً توازي رجاءه؛ لكنه يثبت على الباب. جاء الحث على الصلاتين عقب بشارة الرؤية، والوعد لا يغيب لأن شعور العبد ضعف.

كان رجاء لقاء الرب يعين العبد على الصلاة في أول الطريق؛ وهنا تعود الصلاة حارسةً لرجاء النظر إليه. يسجد فقيرًا، ويرجو يومًا ترفع فيه الوجوه إلى ربها.

وفي دعاء النبي صلى الله عليه وسلم يبقى القلب مفتقرًا عند أعلى رجائه: «وَأَسْأَلُكَ لَذَّةَ النَّظَرِ إِلَى وَجْهِكَ، وَالشَّوْقَ إِلَى لِقَائِكَ، فِي غَيْرِ ضَرَّاءَ مُضِرَّةٍ وَلَا فِتْنَةٍ مُضِلَّةٍ» (سنن النسائي، 1305، بإسناد صحيح).

المحور التاسع: وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ

من رجا لقاء الله ورضوانه والنظر إلى وجهه عاد من هذه الذروة إلى الخلق بقلب آخر. يدخل شوقه بيته وسوقه ومجلس علمه وميدان دعوته : رحمةً وصلةً وصدقة، وعدلًا وتعليمًا وإصلاحًا ونصرةً لمظلوم، وثباتًا على مشروع نافع وعبادةً خفية.

فالآخرة تكشف للإنسان ما يرسله من يومه إلى غده. كلمته وماله ووقته وخبرته أبواب للتقديم: يكف أذى، ويؤدي حقًا، ويخفف كربة، ويبذل علمًا، ويترك شهوة لله.

مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ

قال النبي صلى الله عليه وسلم: «مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلَا يُؤْذِ جَارَهُ، وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيُكْرِمْ ضَيْفَهُ، وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيَقُلْ خَيْرًا أَوْ لِيَصْمُتْ» (صحيح البخاري، 6018؛ صحيح مسلم، 47).

ثلاث مرات يرد الفعل إلى أصل واحد: الإيمان بالله واليوم الآخر. فلا تكون الكلمة تهذيبًا اجتماعيًا مجردًا، ولا الجوار عادةً تحفظ الصورة، ولا الضيافة مجاملةً ينتظر صاحبها الثناء. يرى المؤمن الله مطلعًا، ويرى يومًا تعود فيه الكلمة والحق والكرم إلى صاحبها.

تخرج الكلمة من الفم سريعة، وقد تبقى في قلب سامعها طويلًا. تكون شهادةً تحفظ حقًا، أو مواساةً ترفع وحشة، وقد تكون سخريةً لا ينساها المجروح، أو خبرًا ينتقل من يد إلى يد حتى يضيع به عرض.

لهذا جمع النبي صلى الله عليه وسلم بين خير يقال وصمت يمنع الشر، وقال الله تعالى: ﴿مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: 18].

لا تعطل هذه الرقابة الكلام، تهذب اللسان الذي سيلاقي صاحبه. يتكلم حين يكون في قوله حق أو نفع، ويسكت حين لا يجد إلا انتصارًا للنفس أو إشعالًا للمجلس. وقد يملك ردًا يضحك الناس، ثم يتركه لأنه لا يريد أن يرسله إلى غده.

ثم يضع القرآن حق الجار في سياق العبادة والتوحيد: ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ﴾ [النساء: 36]. فالجار

لا يختبر خطاب الإنسان الكبير، يختبر أثره المتكرر: هل يأمن أذاه، ويحفظ حرمته، ويجد عند الحاجة قلباً لا يضيق به؟

وقال النبي صلى الله عليه وسلم: «وَاللَّهِ لَا يُؤْمِنُ، وَاللَّهِ لَا يُؤْمِنُ، وَاللَّهِ لَا يُؤْمِنُ». قيل: ومن يا رسول الله؟ قال: «الَّذِي لَا يَأْمَنُ جَارُهُ بَوَائِقَهُ» (صحيح البخاري، 6016). قد يصغر الأذى في عين فاعله لأنه يتكرر، لكنه في بيت الجار يتحول إلى ترقب يفسد السكن. والإيمان باليوم الآخر يرد صاحبه من السؤال: هل أقدر؟ إلى السؤال: بأي حق أفعل؟

والضيف يطرق على وقت الإنسان وراحته وماله، فيكشف هل يملك نعمته أم تملكه راحته. قال النبي صلى الله عليه وسلم: «مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيُكْرِمْ ضَيْفَهُ جَائِزَتَهُ». قالوا: وما جائزته يا رسول الله؟ قال: «يَوْمُهُ وَلَيْلَتُهُ، وَالضِّيَافَةُ ثَلَاثَةُ أَيَّامٍ، فَمَا كَانَ وَرَاءَ ذَلِكَ فَهُوَ صَدَقَةٌ عَلَيْهِ» (صحيح البخاري، 6019؛ صحيح مسلم، 48). كرم منضبط لا إسراف فيه ولا استعراض، وحق لا يتحول إلى إثقال على صاحب البيت.

الكلمة والجار والضيف مواضع قريبة يظهر فيها صدق الإيمان قبل المواقف النادرة. يخرج الإنسان فيها من مركز نفسه: لا يقول كل ما يشتهي، ولا يستعمل قدرته على أذية من حوله، ولا يجعل راحته فوق كل مروءة. ما يصدقه عن الآخرة يجد طريقه إلى أقرب الناس والمجالس والأبواب.

رَحْمَةُ الْيَوْمِ لِكَرْبِ ذَلِكَ الْيَوْمِ

قال الله تعالى: ﴿وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ وَأَن تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: 280]. الدين حق، وعجز المدين لا يبطله، لكن القرآن يدخل الرحمة في طريقة استيفائه. إذا ثبت العسر، لم يبح الحق لصاحبه أن يحول المطالبة إلى إذلال، ولم يجعل المهلة إلغاءً للمال؛ حفظ الحق وحفظ الإنسان معه.

في إمهال المعسر رحمةٌ يعبر بها صاحب الحق إلى من ضاق به العسر؛ تحفظ المال من الضياع، والإنسان من الإذلال. ويرى الدائن في هذه العبادة حاجته هو إلى رحمة الله.

وجاءت السنة ففتحت لحظة المطالبة على لقاء الله. قال النبي صلى الله عليه وسلم: «كَانَ رَجُلٌ يُدَايِنُ النَّاسَ، فَكَانَ يَقُولُ لِفَتَاهُ: إِذَا أَتَيْتَ مُعْسِرًا فَتَجَاوَزْ عَنْهُ، لَعَلَّ اللَّهَ أَنْ يَتَجَاوَزَ عَنَّا، فَلَقِيَ اللَّهَ فَتَجَاوَزَ عَنْهُ» (صحيح البخاري، 3480؛ صحيح مسلم، 1562).

كان يرى نفسه في المدين: هذا محتاج اليوم إلى تجاوز، وأنا محتاج غداً إلى تجاوز الله. لم يزعم أن الحقوق لا قيمة لها، لكنه فتح في صلابة المعاملة موضعاً للرجاء، فعاد ما فعله بالناس رحمةً لقي بها ربه.

وقال صلى الله عليه وسلم: «مَنْ أَنْظَرَ مُعْسِرًا، أَوْ وَضَعَ عَنْهُ، أَظَلَّهُ اللَّهُ فِي ظِلِّهِ» (صحيح مسلم، 3006). مهلة في ورقة دين تمتد إلى يوم يشتد فيه الكرب، ووضع عن محتاج يصير للعبد ما لا يستطيع أن يصنعه لنفسه. هكذا يعيد اليوم الآخر وزن التنازل: ما يراه الحساب العاجل نقصًا قد يكون عند الله نجاةً وكرامة.

ولا تقف الرحمة عند الدَّين. قال النبي صلى الله عليه وسلم: «مَنْ نَفَّسَ عَنْ مُؤْمِنٍ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ الدُّنْيَا نَفَّسَ اللَّهُ عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَمَنْ يَسَّرَ عَلَى مُعْسِرٍ يَسَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا سَتَرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَاللَّهُ فِي عَوْنِ الْعَبْدِ مَا كَانَ الْعَبْدُ فِي عَوْنِ أَخِيهِ» (صحيح مسلم، 2699).

لا يشترط في رحمة اليوم أن يزيل الإنسان الكربة كلها؛ يكفي أن يخفف ثقلها، أو يفتح بابًا، أو يقف مع صاحبها. ميزانها مقدار الفرج الذي وصل إلى الناس، لا مقدار ما صنعته من صورة لصاحبها.

الستر الموعود لا يحمي معتديًا ولا يعطل حق من يجب أن يُحمى؛ فالأذى المتعدي يرفع إلى من يقدر على منعه. أما الزلة التي لا يتعلق بكشفها حق، فيسترها من يرجو ستر الله، ولا يجعل ضعف أخيه حديثًا أو ثمنًا لمعونة قدمها. يعين ويحفظ الكرامة، والله في عونه ما دام في عون أخيه.

أَعْمَالٌ تَنْتَظِرُ الظِّلَّ

قال النبي صلى الله عليه وسلم: «سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللَّهُ فِي ظِلِّهِ يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ: الْإِمَامُ الْعَادِلُ، وَشَابٌّ نَشَأَ فِي عِبَادَةِ رَبِّهِ، وَرَجُلٌ قَلْبُهُ مُعَلَّقٌ فِي الْمَسَاجِدِ، وَرَجُلَانِ تَحَابَّا فِي اللَّهِ اجْتَمَعَا عَلَيْهِ وَتَفَرَّقَا عَلَيْهِ، وَرَجُلٌ طَلَبَتْهُ امْرَأَةٌ ذَاتُ مَنْصِبٍ وَجَمَالٍ فَقَالَ: إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ، وَرَجُلٌ تَصَدَّقَ أَخْفَى حَتَّى لَا تَعْلَمَ شِمَالُهُ مَا تُنْفِقُ يَمِينُهُ، وَرَجُلٌ ذَكَرَ اللَّهَ خَالِيًا فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ» (صحيح البخاري، 660؛ صحيح مسلم، 1031).

في صدر الحديث أعمال يراها الناس: سلطة تعدل، وشباب ينمو في العبادة، وقلب تخرجه مصالحه من المسجد ثم يبقى مشدودًا إليه. العدل هنا قرار حين يقدر صاحبه على الميل، والعبادة جهة عمر لا دعوى عصمة من الزلل، والتعلق بالمساجد حنين إلى موضع الصلاة والجماعة كلما غلبت الطريق غبارها.

ثم تظهر أعمال تتكون بين قلبين أو عند باب فتنة: محبة لا تقوم على منفعة، تجمع صاحبين على الله وتبقي النصح بينهما حين يتغير الهوى؛ وعفة تجتمع عليها دواعي الشهوة والمنصب والجمال، ثم تنهض في القلب كلمة واحدة: «إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ». حين يضعف كل رقيب قريب، تصير معرفة الله قوةً تحرر الإنسان من شهوته.

ويختم الحديث بعملين لا يحتاجان إلى عين بشر: صدقة يخفيها صاحبها، وذكر في خلوة تفيض معه العين. لا جمهور ينشئ الخشوع، ولا ثناء ينتظر البذل. يعبد القلب ربه بلا صورة يدافع عنها، فيتهيأ عمل الخفاء ليوم لا ينفع فيه إلا ما علمه الله ورضيه.

تتعدد الضغوط في أعمال الظل: سلطة تدعو إلى الميل، وشباب إلى الغفلة، وشهوة يغيب عندها الرقيب، ومال يطلب الثناء، وخلوة لا يشهدها إلا الله. وتفتح هذه الأعمال ميادين للصدق تتجاوز تفريج الكرب؛ أعمالًا تثبت صاحبها حين تشتد حرارة الموقف.

وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ

قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ۝ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ أُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [الحشر: 18-19].

تسمي الآية الآخرة غدًا؛ قريبًا يدخل في قرار اليوم. وما يفعله الإنسان يتقدمه إلى ذلك الغد: قول وحق ورحمة وبذل وتوبة. والنظر محاسبة تحت التقوى، لا قلقًا يشل القلب: ما الذي ينبغي أن يستدرك قبل أن يمضي؟

وتكشف المقابلة أن نسيان الله يورث ضياع النفس: ﴿فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ﴾. يظن الإنسان أنه يخدم نفسه حين يبعدها عن أمر ربها، فيحفظ لها ما ينقطع ويهمل ما تجده عند الله. ذكر الله لا ينتزعها منه؛ يردها إلى حقيقتها، ويعرّفها ما الذي يستحق أن تقدمه لغدها.

ثم يفتح القرآن باب السباق: ﴿سَابِقُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [الحديد: 21]. يسابق المؤمن تسويفه وتباطؤه، ثم يرد القرآن المغفرة والجنة إلى الفضل؛ فيجتمع نشاط العامل وفقره، ويبادر ولا يجعل مبادرته ثمنًا مستقلًا للنجاة.

وقال النبي صلى الله عليه وسلم: «الْجَنَّةُ أَقْرَبُ إِلَىٰ أَحَدِكُمْ مِنْ شِرَاكِ نَعْلِهِ، وَالنَّارُ مِثْلُ ذَلِكَ» (صحيح البخاري، 6488). لا تفصل الإنسان عن إحدى الدارين دائمًا أحداث يراها العالم. قد تقربه كلمة كفها، وحق رده، وكربة نفس عنها؛ وقد تقربه كلمة استهان بها، أو ظلم كره حتى ألفه.

قرب الجنة والنار يورث يقظة لا توترًا مرضيًا. لا يملك المؤمن أن يحكم لنفسه بالمصير، لكنه يعلم أن اختياراته مكتوبة، وأن التوبة والعمل لا يضيعان. فيترك ما ظهر له شره، ويبادر إلى ما ظهر له خيره، ويسأل ربه الثبات والقبول.

وفي الساعة التي هو فيها باب مفتوح: كلمة نافعة، أو حق يؤديه، أو رحم يصلها، أو طالب يعلمه، أو مظلوم ينصره، أو عمل خفي يخلصه، أو مشروع خير يثبت عليه. لا يحتاج القرب إلى برنامج مصنوع؛ يحتاج صدق البدء.

ليس غد الآخرة بعيدًا عن اليوم؛ كل قرار صادق يرسل منه شيئًا إلى الله.

﴿وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾.

خاتمة

سيعود القارئ بعد إغلاق الكتاب إلى يوم عادي: موعد ينتظره، وكلمة تتهيأ على لسانه، وحق يطلبه أو يطلب منه، وعمل لا يعلم الناس ما وراءه. هناك يظهر ما بقي من الآخرة في قلبه؛ لا في عدد المشاهد التي حفظها، بل في الوزن الذي يحكم به هذه اللحظة.

قد يملك أن يؤخر واجبًا، أو يجامل في ظلم، أو يختار راحته على حاجة قريب، أو يمضي في مشروع نافع لم تظهر ثمرته. فإذا حضر الرجوع إلى الله، لم تعد هذه التفاصيل صغيرة؛ صارت مواضع لقاء: إما عملًا يقدمه، وإما حقًا يخشى أن يقوم به بين يدي ربه.

ولا ينجو العبد بقوة عزمه ولا بكثرة ما جمع من الطاعات. هو فقير إلى من هداه وأعانه وستره وقبل منه. يعمل لأن الله أمر، ويتوب لأن الباب مفتوح، ويرد الحق لأن العدل حق، ثم يحمل ذلك كله إلى ربه وهو يقول بقلبه: لا غنى لي عن رحمتك طرفة عين.

وأعلى ما يحمله في طريقه ليس مجرد النجاة من هول ولا بلوغ نعيم؛ إنه رجاء لقاء الله ورضوانه والنظر إلى وجهه الكريم. هذا الرجاء لا يبعده عن الناس، بل يجعله أصدق رحمةً وعدلًا ووفاءً؛ لأنه يطلب في معاملتهم رضا من سيلقاه.

ستعود الغفلة ويشتد ضغط العاجلة، وربما اختل الوزن بعد أن استقام. والقلب المؤمن يضعف، لكنه يعرف طريق الرجوع: كلام الله، ووعده الذي لا يتخلف، ورب يعلم الكدح ويسمع الدعاء ويقبل التوبة.

فإذا بقي من الكتاب هذا الرجوع، فقد بقي مقصوده: أن تعيش الدنيا بجد، من غير أن تمنحها الحكم الأخير؛ وأن تعمل للآخرة، من غير عجب ولا قنوط؛ وأن تمضي إلى الله متقيًا، لا تريد علوًّا في الأرض ولا فسادًا. وتحت آية العنوان تستقر العاقبة كلها: ليست لمن علت صورته، بل للمتقين.

قال الله تعالى: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [القصص: 83].

الملحق الأول: مسائل الغيب المحررة

ليس هذا الملحق جمعًا لتفاصيل اليوم الآخر ولا مختصرًا مستقلًا في العقيدة؛ إنما يثبت الحدود التي حكمت الكتاب: يُثبت ما دل عليه القرآن والسنة الصحيحة، ويُميِّز الأصل الثابت من التفصيل غير الثابت، ويُترك المسكوت عنه من غير أن يملأه الخيال.

وسُمّيت مسائله محررةً لأنها تُرد إلى نصوصها، ثم يُستخرج أثرها التعبدي من داخل الدليل. فحفظ الغيب من الزيادة ليس برودةً علمية، بل عبودية لخبر الله ووعده وحكمه.

الموت والبرزخ

ثبت أن الموت انتقال من دار العمل إلى دار الجزاء، وأن الإنسان إذا بلغته سكرته انقطع عمله المباشر الذي يكتسبه باختياره، وبقيت آثار أعمال دل الوحي على استمرار نفعها، وبقيت التوبة النافعة قبل الغرغرة ما دام زمن الاختيار قائمًا. وثبت البرزخ بين الموت والبعث بآية المؤمنون، ودلت آية غافر على عذاب البرزخ، وجاءت السنة الصحيحة بتفاصيل فتنة القبر وسؤال الملكين وعرض المقعد ونعيم القبر وعذابه والاستعاذة منه.

ولا نحدد كيفية تعلق الروح بالبدن بعد الموت، ولا نقيس زمن البرزخ بزمن الدنيا، ولا نجزم بما يراه كل ميت في كل لحظة. كما لا تُجعل المنامات والحكايات الشعبية مصدرًا لمعرفة أحوال القبور. ما صح من الخبر يُؤمن به، وما لم يصح لا يكتسب قوة لأنه مؤثر أو شائع.

وأثر هذا الأصل أن يعرف الإنسان أن الموت لا يمحو قصته، وإنما يغلق زمن تعديلها. فيبادر إلى التوبة، ويرد الحق، ويحفظ طهارته ولسانه، ويتبع النبي صلى الله عليه وسلم، ويستعيذ بالله مما استعاذ منه رسوله، من غير أن يعيش أسير تخيلات لا دليل عليها.

النفخ في الصور والبعث

أثبتت سورة الزمر نفخة الصعق ثم نفخة القيام، ونقف في استيعاب عدد النفخات وترتيبها عند الدليل. وثبت أن الله يعيد الخلق بعد موتهم، وأن الأجساد تقوم، وأن الناس يخرجون من الأجداث إلى ربهم. والبعث إعادة حقيقية للإنسان الذي عاش وعمل، لا خلق إنسان آخر يشبهه، ولا بقاءً معنويًا في أثره بين الناس.

ويقف المؤمن عند الاستثناء في قول الله: ﴿إلا من شاء الله﴾ من غير أن يعيّن أشخاصًا لم يعيّنهم نص صحيح صريح. كما لا يتكلف جمع كل ما ورد في النفخ والصعق والقيام في ترتيب تفصيلي لم يثبت، ولا يجعل اختلاف عبارات النصوص ميدانًا لتصورات زمنية لا سبيل إلى القطع بها.

والبعث يعيد العقل إلى الخلق الأول وإحياء الأرض، ثم يرفع القلب إلى الخلاق العليم. أثره أن يعلم العبد أن الماضي لم يخرج من قدرة الله ولا من علمه، وأن كل قضية ظن أصحابها أن الموت أغلقها ستعود إلى حكم لا يفوته أحد.

انقلاب العالم والحشر

ثبت أن نظام العالم المألوف يتغير: تكور الشمس، وتنكدر النجوم، وتسير الجبال، وتنشق السماء، وتبدل الأرض، ثم يحشر الخلق جميعًا، لا يُغادر منهم أحد. ويقوم الناس لرب العالمين حفاة عراة غرلا، وتدنو الشمس، ويشتد الموقف، وتخشع الأصوات للرحمن.

ولا يحول المؤمن هذه النصوص إلى مشاهد مرسومة تتجاوز ألفاظ الوحي، ولا يجزم بترتيب جزئي لكل انقلاب كوني إلا حيث دل الدليل. الغرض الأول من هذه المشاهد ليس صناعة صورة بصرية مكتملة، بل إسقاط وهم ثبات العالم واستقلاله، وإظهار الملك لله، وإرجاع الإنسان إلى ما أحضر من عمل.

ومن عاش بهذا المعنى استعمل العالم ولم يعبده، وبنى فيه من غير أن يتوهم خلوده، واحترم السلطان المشروع من غير أن يذوب أمام قوة زائلة. كل ملك مملوك، وكل إطار ألفه الإنسان ينتظر أمر ربه.

العرض والكتاب والشهود

ثبت عرض الخلق على الله، وظهور السرائر، ونشر الكتب، وإعطاء الكتاب باليمين، وإيتائه بالشمال ومن وراء الظهر كما جاءت النصوص، من غير بناء تقسيم عددي لا يدل عليه النص. وثبت أن العمل يحضر، وأن الجوارح تشهد، وأن الأرض تحدث أخبارها بإذن ربها، وأن الإنسان يقرأ كتابه ويعرف ما فيه.

ولا نحدد مادة الكتاب ولا هيئته ولا اللغة التي يقرأ بها كل إنسان، ولا نملأ كيفية شهادة الجوارح والأرض بتصورات حسية من عندنا. يكفي أن الشهادة حق، وأن الله الذي أنطق كل شيء ينطق ما شاء، وأن الكتاب لا يظلم صاحبه ولا ينسب إليه ما لم يعمل.

وأثر ذلك أن تتقدم الحقيقة على الصورة. يصلح العبد سريرته قبل انكشافها، ويحفظ الكلمة قبل أن تُكتب، ويستعمل جوارحه فيما يحب أن تشهد به له. ولا تتحول مراقبة الكتاب إلى وسواس يستعيد كل مجهول، بل إلى توبة مما ظهر، ورد لما أمكن، ومضي في الطاعة.

الحساب والميزان

ثبت الحساب، وثبت الفرق بين العرض اليسير ومناقشة الحساب، وثبتت الموازين القسط حقيقة من حقائق الغيب. وجاءت النصوص بوزن الأعمال والصحف، وجاءت نصوص في وزن صاحب العمل؛ فلا يُحصر الموزون في واحد منها، ولا تُرد النصوص بعضها ببعض. كما ثبت أن الحسنة لا تضيع، وأن السيئة لا تزاد، وأن مثقال الذرة حاضر في العدل الإلهي.

ولا تُجعل الموازين رمزًا مجازيًا للإنصاف، ولا تُخترع لكيفيتها صورة. وما ورد في حديث البطاقة يُثبت كما جاء: صحائف، وبطاقة قامت بصدق التوحيد وما استقر في القلب منه، وفضل الله الذي لا يقوم معه شيء، من غير أن يتحول الحديث إلى أمان للمصر على المعصية أو ذريعة لإهدار حقوق العباد.

وأثر الحساب والميزان أن يستصغر العبد نفسه ولا يستصغر العمل. يكثر الطاعة، ويخاف ردها لنقصها، ويرجو الحساب اليسير، ويعلم أن النجاة لا تكون بمعاوضة يستحق بها على الله، وإنما يعمل بسبب شرعه الله ويرجو فضل ربه ورحمته.

حقوق العباد والقصاص

ثبت أن حقوق الخلق تدخل الحساب، وأن حسنات الظالم قد تُنقل إلى من ظلمهم، فإن فنيت أُخذ من خطاياهم فطرحت عليه، وأن أول ما يقضى بين الناس في الدماء. وثبت كمال العدل حتى في القصاص بين البهائم، فكيف بحقوق من حملوا ألم الظلم وكرامتهم ومالهم وأبدانهم.

ولا يملك أحد أن يحدد لنزاع معين كيف ينتهي في الآخرة، ولا أن يجزم لشخص بعينه بالنجاة أو الهلاك من خلال قضية لم يحط بحقائقها. كما لا يُستعمل رجاء العفو لإسكات المظلوم، ولا تُستعمل التوبة لتكليف صاحب الحق أن يتنازل. باب العفو عبادة يختارها من يملك الحق، وباب القضاء والإنصاف باق.

وأثر هذا الأصل أن تتصل العبادة بالعدل. لا يحتمي المرء بصلاة وصيام مع إبقاء المظالم، ولا يؤجل رد المال والاعتذار وتصحيح الخبر. ومن ظلم بدأ صدق توبته بالكف ورد الحقوق وبذل ما يستطيع لإزالة الأثر.

الشفاعة

الشفاعة حق ثابت، وأعظمها الشفاعة العظمى للنبي صلى الله عليه وسلم في الموقف بإذن الله لفصل القضاء، وله شفاعات أخرى ثبتت بها السنة في النجاة ورفع الدرجات. والشفاعة كلها ملك لله لا تكون إلا بإذنه، وما تعلق منها بالنجاة من النار أو الخروج منها فهو لأهل التوحيد ممن أذن الله فيهم ورضي عنهم؛ والشافع نفسه عبد مكرم لا يتقدم بين يدي ربه استقلالًا.

ولا تُفهم الشفاعة على صورة الوساطة الدنيوية التي تضغط على صاحب الحكم أو تغير علمه. لا يوجد في الآخرة باب خلف ملك الله، ولا شفاعة تنازع عدله، ولا تنفع من مات على الكفر شفاعةٌ تنجيه من النار أو تدخله الجنة. كما لا يُبنى على تفاصيل ضعيفة أو مختلف فيها تصور عقدي كامل.

وأثرها أن يجتمع الرجاء والاتباع. يحب المؤمن نبيه صلى الله عليه وسلم، ويسأل الله شفاعته، ويعظم سنته، ولا يجعل المحبة والانتساب بديلًا عن الإيمان والتوبة والعمل. تبدأ الشفاعة بالسجود والإذن؛ فترد القلب كله إلى الله.

الحوض والصراط

ثبت حوض النبي صلى الله عليه وسلم، وأنه سابق أمته إليه، وأن من الناس من يُذاد عنه لما أحدث بعده. وثبت الصراط المضروب على جهنم، وأن الناس يمرون عليه على قدر أعمالهم، وأن الأمانة والرحم على جنبتيه، وأن دعاء الأنبياء يومئذ: «رب سلم سلم».

ولا نجزم بكل تفصيل في سعة الحوض وآنيته وترتيب الورود عليه إلا بما صح، ولا نحول الصراط إلى صورة هندسية أو نستكمل كيفية المرور بخيال. كما لا نركب لفظًا من روايات متعددة ثم ننسبه إلى حديث واحد.

وأثر الحوض أن تتحول محبة النبي إلى اتباع، وأثر الصراط أن تدخل الأمانة والرحم والعمل في رجاء السلامة. لا يطلب العبد النجاة بقوته، بل يعمل ويسأل ربه النور والتثبيت والسلام.

الجنة والنار والخلود

الجنة والنار حق، مخلوقتان موجودتان، باقيتان لا تفنيان، وأهلهما متفاوتون في الدرجات والدركات كما دلت النصوص. نعيم الجنة حقيقي للروح والبدن، وعذاب النار حقيقي، والموت يذبح بعد دخول أهل الدارين فيقال خلود فلا موت. وما أعده الله لعباده الصالحين فوق ما رأته عين أو سمعته أذن أو خطر على قلب بشر.

ولا تُعرض النار مادة للتلذذ بالتخويف، ولا تُستكمل صور عذابها من أخبار واهية. كما لا تتحول الجنة إلى كمالوج لذات منفصل عن طريق الإيمان والتقوى والصبر والإخلاص. ما وصفه الوحي يُصدق، وما سكت عنه لا يحتاج إلى خيال يكمله.

وأثر النار أن تكون نذيرًا يرد الإنسان عن الصلاة المضيعة، وترك المسكين، والخوض، والتكذيب. وأثر الجنة أن يعرف أن الوفاء والرحمة والإخلاص والصبر طريق إلى دار يذهب فيها الحزن والنصب والخوف من الفناء.

لقاء الله ورضوانه ورؤيته

لقاء الله حق، وكل إنسان كادح إلى ربه. وثبت أن رضوان الله على أهل الجنة أعظم من نعيمها، وأنه يحل عليهم رضوانه فلا يسخط عليهم بعده أبدًا. وثبت عند أهل السنة أن المؤمنين يرون ربهم يوم القيامة وفي الجنة رؤية حقيقية تليق بجلاله، من غير إحاطة ولا تكييف ولا تمثيل، وأن الزيادة في آية يونس فسرها النبي صلى الله عليه وسلم بالنظر إلى وجه الله الكريم.

ولا يُحمل نفي إدراك الأبصار على نفي أصل الرؤية؛ فالرؤية ثابتة، والإحاطة منفية. ولا يشبه الله بشيء من خلقه، وتشبيه النبي صلى الله عليه وسلم رؤية المؤمنين لربهم برؤية القمر تشبيه للرؤية في الوضوح وعدم التضام، لا تشبيه للمرئي بالمرئي. كما لا تُجعل الرؤية بابًا للخيال في الكيفية؛ الله ليس كمثله شيء.

وأثر هذه الذروة أن تصير العبادة سيرًا إلى الله، لا طلبًا لعطايا منفصلة عنه. يحرس العبد الصلاة، ويسأل لذة النظر والشوق إلى اللقاء من غير ضراء مضرة ولا فتنة مضلة، ويبتغي مرضاة الله فوق رضا الخلق.

قاعدة جامعة في الغيب

ما أثبته القرآن على وجه الإجمال نثبته كذلك، وما فصلته السنة الصحيحة نفصله بقدر ما فصلت. لا يُبنى أصل عقدي على حديث ضعيف، ولا يُركب لفظ من روايتين، ولا يُجزم بترتيب أو كيفية لم يثبتا، ولا يُنقل قول موقوف على أنه مرفوع. وعند اختلاف أهل العلم في دلالة أو ترتيب يذكر القدر المتفق عليه، ويترك ما لا يحتاج إليه أثر الكتاب.

والأثر تابع للدليل، لا متقدم عليه. فلا نحتاج إلى زيادة مجهولة حتى نخاف، ولا إلى صورة مصنوعة حتى نشتاق؛ في الوحي الصحيح من الجلال والرحمة والصدق ما يبلغ القلب، ويحفظ له في الوقت نفسه عبوديته وحدوده.

الملحق الثاني: خريطة رحلة الكتاب

هذه الخريطة تكشف حركة الكتاب ولا تغني عن متنه: تسع مراحل ينقل فيها الوحي الخبر من التصديق إلى الحكم، ثم يعيد مشاهد الآخرة عملًا قريبًا.

الأول: من التصديق إلى اليقين الحاضر

يثبت الوحي مصدر الخبر، ويرد استبعاد البعث إلى الخلق الأول وإحياء الأرض، ويكشف تسويف الإرادة. ميزان المرحلة: ألا يبقى الغيب إقرارًا بلا سلطان على القرار.

الثاني: الرجوع الذي ينفي العبث

يظهر الرجوع تمامًا لحكمة الخلق، والدنيا دار ابتلاء لا دار توفية، والموت حدًّا للعمل والبرزخ أول تعلق بالمآل. ميزان المرحلة: ألا تُقرأ النتيجة المؤقتة حكمًا نهائيًا.

الثالث: العالم الذي ينقلب والخلق الذين يحشرون

ينقلب نظام العالم، ويخرج الخلق ويحشرون، ويظهر الملك للواحد القهار. ميزان المرحلة: استعمال العالم والسلطان من غير عبادتهما أو الذوبان أمامهما.

الرابع: الإنسان كما هو لا كما ظهر

تنكشف السرائر والكتب والشهود، وتسقط الفدية والاتكاءات، وتتقدم الحقيقة على الصورة. ميزان المرحلة: ألا يُجعل حسن العرض أو غياب أعين الناس أمانًا.

الخامس: حكم دقيق تفتحه الرحمة

يأتي الحساب والميزان وحقوق العباد والشفاعة، ويظهر أن العمل سبب والنجاة فضل. ميزان المرحلة: ألا يحتمي العبد بطاعته من مظلمته ولا يتكل على الرحمة مع التفريط.

السادس: الآخرة تدخل في الظلم والتوبة والخوف والرجاء

يعود وعد الآخرة إلى الظلم والتوبة والخوف والرجاء: الإمهال ليس غفلة، والحق لا يضيع، وباب الرجوع مفتوح. ميزان المرحلة: ألا تُقرأ المهلة براءة ولا الذنب قدرًا يمنع العودة.

السابع: الأسماء النهائية تظهر عند المصير

يظهر التغابن، ويسعى النور، ويقع الفرز إلى النار والجنة، وتنكشف الطرق التي أفضت إلى الدارين. ميزان المرحلة: تعريف الفوز والخسران بالمصير لا بالتصفيق والعاجل.

الثامن: من الدار إلى رب الدار

ترتفع الرحلة من نعيم الدار إلى لقاء الله ورضوانه ورؤيته. ميزان المرحلة: ألا تُطلب العطية منفصلة عن المعطي، ولا يُجعل رضا الخلق قبلة العمل.

التاسع: الغيب يعود عملًا قريبًا

يعود الشوق إلى اليوم: كلمةً ورحمةً وعدلًا وصدقةً وصلةً وعملًا خفيًا، ثم تجمعه المحاسبة والتقديم لغد. ميزان المرحلة: ألا ينتظر الإيمان موقفًا نادرًا ولا يتحول إلى قلق معطل.

الخيط الجامع

الخيط الجامع: خبر من الله يصير ميزانًا، ومشاهد الغيب تصير عبودية، والدار تقود إلى رب الدار ثم تعيد القلب إلى أقرب قرار.

فالآخرة ليست فصلًا أخيرًا يضاف إلى الحياة؛ هي الميزان الذي يعيد وزن الخلق والموت والألم والنجاح والظلم والطاعة واللذة.

مركز الدراسات والبحوث | جامعة ابن كثير الدولية

سلاسل مركز الدراسات والبحوث

السلاسل التي ينتجها المركز

- سلسلة العلوم التطبيقية
- **سلسلة موازين القرآن** — السلسلة الحالية
- سلسلة مفاهيم الفكر المعاصر
- سلسلة حقوق وفضائل
- سلسلة طبائع النفس